الموسوعة الصغيرة

١

العرب والحضارة الأوربية

د. فيصل السامر

٥

الموسوعة الصغيرة

١

العرب والحضارة الأوربية

د . فيصل السامر

آب ١٩٧٧

منشورات وزارة الاعلام الجمهورية العراقية ـ بغداد

في الموقف

منذ القرن التاسع عشـــر ، والوطن العربي يحتك بالحضارة الغربية التي اخذت تزحف علينا بألاتها وعددها واسـلحتها وافكارهـا ونظمهـا وفلسفاتها زحفا لا قبل لأحد بعده . ولم يكن هذا الاحتكاك بقيمنا القديمة هينا رقيقا دائمـا بحيث يتفاعل الجديد الاوربي بالقديم الشــرقي بطريق الامتصاص ، بل ان الحضارة الغربيـة اصطدمت — في كثير من الحالات — بتراثنا اصطداما عنيفا .

ان التقدم المادي والثقافي المتسارع الـذي اعقب الثورة الصناعية في اوربا ، هـدم الحواجز والحدود بين الاقطار والقارات ، فلم يعد هنـاك صقع يستطيع ان يقفل ابوابه على نفسه ليستنيم الى عزلته . فما يحدث في اقصى امريكـا نجد له صدى في العراق ، وما يدور في اليابان نرى له رد فعل في افريقيا . وهكذا نجد ان البشـرية اخذت تسير في طريق ما يمكن ان يسمى بالمجتمع العالمي . لذلك لا يسع العربي ان يتقاضى عما يدور حوله في البلاد الاخرى ، واصبح ملزما بأن يشارك — شاء ام أبى — في كل ما يجري على هذا الكوكب الارضي ،

الذي غدا وحدة واحدة ضيقة الى ابعد الحدود ، بفعل التقدم العلمي والتقني في جميع الميادين .

ومن ثم فانه يتحتم على العرب ان يتخذوا موقفا ازاء حضارة الغرب وفكره ، واعني بالموقف تكوين فلسفة شاملة في النظر الى المسائل ككل . فنحن ـ كما اسلفت ـ نعيش في عصر زالت فيه الحدود والسدود امام تقدم وسائل الاتصال ، فأصبحنا معرضين لان تغزونا في عقر دارنا كل مظاهر الحضارة الغربية مادية وغير مادية ، منها ما يفرض نفسه علينا فرضا ، ومنها ما يتسرب تسربا دون ان نشعر به او نتحسسه ، ومنها ما نستعيره نحن بأنفسنا استعارة لحاجتنا اليه ومن ثم فنحن نستطيع أن نميزه ونعرف مواطن النفع فيه .

ان وجه الخطر يكمن في ان الحضارة الغربية كأية حضارة ـ تتكون من عناصر متشابكة متداخلة ، ولادماج عناصر جديدة في حضارة مجتمع ما فأنه ينتج عن ادماجها التعسفي مشاكل ومضاعفات لذلك يجب ان نتساءل ـ قبل ادخال اي عنصر حضاري او ثقافي جديد في مجتمعنا : هل يلائم هذا العنصر ـ سواء كان آلة ام نظاما ام تقليدا ام فكرة ـ ظروف المجتمع ، وهل يؤدي ادخاله الى نفع او اصطدام ؟

غير انني يجب ان اؤكد بأن اتخاذ موقف تجاه

ظاهرة الاحتكاك بحضارة الغرب ، لا يعني البتة ان يكون هذا الموقف منبثقا في الرفض السلبي ، بل – على العكس – يجب ان ينبثق عن وعينا الكامل لما نريد ونبتغي ، وبتعبير آخر لما نحتاج ، ومن منطلق تقدمي متحرر هدفه أن يوصل المجتمع العربي الى رحاب التقدم والتمدن .

حضارة اوربية أم غربية ؟

تطلق لفظة الحضارة (او المدنية) بالعربية على ما يدعى بالانكليزية Civilzation (وبالفرنسية Civilsation) . وقد اشترط بعض العلماء ان يتوفر في المدنية نظام صناعي تسوده الآلة وتصحبه نظم تقنية ومنتجات صناعية وعلاقات متطورة بين افراد المجتمع . ومما هو جدير بالذكر ان لفظة Civilzation مأخوذة ومشتقة من لفظة « مدينة » City (واصلها لاتيني) دلالة على ان المدنية انما تزدهر وترتقي في المدن ، وان كان هناك رأي آخر يذهب الى ان المدنية تبدأ في كوخ الفلاح وتنضج في ظل المدينة. ان المدينة (ومرادفتها الحضارة) هي كل ما أبدعه الانسان من تراث مادي مثل ادوات الزراعة والصناعة والصيد والالات المختلفة ووسائل المواصلات وغيرها ، وتراث غير مادي يشمل اللغة

والدين والعـــادات والتقـــاليد والنظم والفنون والعلوم .

ان المدنية ثمرة من ثمرات الاستقرار ومعيشة الناس مجتمعين متعاونين في ظل نظام يفسح لهم مجال الانتاج والابداع في كل حقل من حقول النشاط المادي والثقافي . ومن ثم فهناك شروط لازمة لقيام المدنية ونمائها .

ثم ما الذي نعنيه بالمدنية الغربية ؟ ان تعبير الغرب يمكن ان يطلق على البلاد التي ورثت التراث الحضاري منذ الكشوف الجغرافية وما أعقبها من النهضة العلمية والثورة الصناعية ، وبتعبير آخر البلاد الاوربية المطلة على المحيط الاطلسي وبحاره . ومن هنا يمكن القول ان الحضارة الانسانية انتقلت ثلاث انتقالات كبرى عبر العصور التاريخية : فقد كانت في دورها الاول حضارة زراعية قامت في اودية الانهار الكبرى في الشرق : وادي الرافدين ووادي النيل والسند والكنج ووديان الصين ، ثم انتقلت في دورها الثاني الى الشرق الادنى والبحر المتوسط (وتدخل ضمنهـــا الحضـــارة العربية) ، وكانت مصطبغة بصبغة تجارية حيث اينعت واثمرت في بلاد اليونان والرومان والشرق الادنى والاوسط . واخيرا تطورت الحضارة الانســـانية الى مدنية صناعية مركزها مناجم الفحم والحديد في البلدان

الاوربية الغربية المطلة على المحيط الاطلسي . الا ان هذه الاخيرة ـ وهي مدنية تنشد العلاقات الخارجية كما يعبر احد فلاسفة الغرب ـ ما لبثت ان شملت بقاعا أخرى من العالم فأمتدت الى امريكا ، واخيرا امتدت الى اليابان ، وان كان بعض المفكرين يعتبرون هذا الامتداد الاخيرمرحلة جديدة او مدنية جديدة .

ويرى شبنغلر ان المدنية الحالية التي شملت من سطح الارض اكثره ، هي مرحلة من مراحل المدنية الغربية ، وهي ـ على حد رأيه ـ المدنية الوحيدة القائمة في عصرنا الحاضر .. ويستطرد قائلا : ان الغرب قائد التقدم الانساني حاضرا ومستقبلا ، فقد خطت انكلترا وفرنسا خطوتهما ، وتلتهما المانيا فأمريكا . وهكذا فان بؤر الاشعاع الحضاري في العصر الحديث هي ـ في رأيه ـ باريس ولندن وبرلين ونيويورك ، وهي مدن عالمية تقع في احضانها وتمتد حولها اقاليم شاسعة تستمد منها الارشاد والتوجيه . غير ان شبنغلر يلاحظ بأن حضارة الغرب مهددة بالانحطاط والانهيار ، لان كل حضارة تمر من خلال تتابع الاجيال نفسه الذي يمر به الكائن البشري (الشباب والنضوج فالاضمحلال) ، ومن ثم فهو يهيب باولئك الذين وضع مصير الحضارة بين ايديهم ان يؤدوا واجبهم التاريخي في الحفاظ على هذا الترا ث.

اما ارنولد توينبي فيسمي هذه الحضـــارة « حضارة المجتمع الغربي » وهي ـ في رأيه ـ لما تصل بعد الى مرحلة الدولة العالمية . ويعتقد ان ظاهرة الدولة العالمية هي دلالة على انحلال الحضارة وهي مرحلة يسبقها ما يدعوه « عصر الاضطرابات » الذي يستغرق بضعة قرون ، يتلوها ما يسميه « الفراغ » . وفي الوقت نفسه يرد توينبي على شبنغلر فيقول : ان المجتمع ليس كائنا من هذا النوع الذي يمر بالشباب والنضج والاضمحلال ، ويرى ان الحضارة الغربية هي الوحيدة بين العشر حضارات الباقية الى اليوم التي لم تبد عليها بعد مظاهر الانهيار بالفعل .

ان استخدام تعبير مدنية الغرب او الحضارة الاوربية يمكن ان نستبدلهما بتسمية أدق هي « المدنية الصناعية الآلية » ، ذلك ان انماط الثقافة والفلسفة والعلم والفن والعادات والتقاليد الغربية انما هي تعبير عن هذا النظام نتيجة تطوره وتفاعله مع عناصر البيئة الطبيعية والاجتماعية والظروف التاريخية والبشرية .

طبيعة الحضارة الغربية

لقد مرت حضارة الغرب الصناعية الآلية بثلاث ثورات في مدة تقل عن قرنين : الثورة الصناعية التي انتجت الماكنة البخارية في القرن التاسع عشر ، والثانية تمت في اواخر ذلك القرن حيث تجمعت عدة صناعات آلية حول تطبيقات الكهرباء ، والثالثة هي ثورة العصر النووي الذري المعاصرة .

ولعل من ابرز ما اسفرت عنه هذه الثورات هو النمو المتزايد في استخدام الآلة حتى اقتحمت كل ميادين الحياة . وقد انعكست ظاهرة سيادة الآلة بهيئة رد فعل في اوساط المفكرين الانسانيين حتى خشوا ان يغدو الانسان عبدا لها . فقال جورج برنانوس ان طغيان ذلك العملاق الميكانيكي ادى الى فقدان التأمل الداخلي النفسي والذاتي . ويلاحظ جول رومان بذكاء خطورة الهوة السحيقة والتباين الشاسع بين ارتفاع منحنى التقنية وانخفاض منحنى المؤسسات الاجتماعية ، مع بقاء الطبيعة البشرية ثابتة على خط بياني واحد . ويرى البرت كاموس يائسا « اننا نعيش في عالم لا ينفع فيه الانتاج .. تجاه أناس اسلموا ثقتهم المطلقة العمياء لآلاتهم وآرائهم . »

هؤلاء وغيرهم كثيرون عبروا عن تشاؤمهم من

سيادة الالة ، غير ان مفكرين آخرين كانوا ـ على العكس ـ متفائلين ، فنظروا الى الآلة على انهـا ليست اداة لتحطيم البشر بل وسيلة تزيد في خيرهم ورفاههم ، وان كانت قد اودت بالحياة القديمة . ويقول سانت اكزوبري : « ان كل شيء حولنا : علاقات البشر ، وشروط العمل والتقاليد ، قد اصابه التغير السريع . وقد ادى بنا التقدم الى ان نهجر حياتنا العتيقة ، حتى اصبحنا مهاجرين بمعنى الكلمة لم يتح لنا بعد ان نبني موطنا نقيم فيه . ونحن ـ في نشوة الرقي والتقدم التي ادارت رؤوسنا ـ حشدنا الرجال والنساء لانشاء سكك حديد ومصانع ومعامل ولحفر آبار البترول . لكنه غاب عن بالنا ان انشاءاتنا هذه هي من اجل البشر ، وعلينا ان نجعل هذا الوطن ـ الذي لم تكتمل ملامحه بعد ـ زاخرا بالحياة ... ان وطننا ستتزايد انسانيته شيئا فشيئا . »

لقد احرزت المجتمعات الغربية في اوربا وامريكا خلال القرن الاخير نجاحا اي نجاح في السيطرة على قوى الطبيعة . فان شبح المجاعة الذي طالما هدد الحضارات القديمة الوسيطة ابعد كلية ، وسيطر الغرب على الطاعون والاوبئة الفتاكة التي عصفت بأرواح الملايين في القرون الخالية ، وكذلك استطال عمر الانسان في المعدل نتيجة التقدم الطبي

والصحي . وقد اخذت القوى الهائلة المسخرة في المحرك الكهربائي وماكنة الاحتراق الداخلي تحقق اغراض الانسان اكفأ بكثير مما كانت تفعله عضلات آلاف العمال او الثيران المسخرة في العمل . وادى تكييف الهواء الى تخليص النشاط البشري من مضايقات المناخ جاعلا حياة الانسان المتمدن صحية ومريحة وسط العواصف الرملية والزوابع الثلجية . واستطاع الانسان بيسر وأمان ان ينتقل وينقل بضائعه الضرورية والكمالية بين القطبين عبر الطرق البرية والبحرية والجوية التي غطت الكرة الارضية . وكذلك ازالت اجهزة الاتصال التلغرافي والتلفوني واللاسلكي كل العقبات في طريق الاتصال وتبادل المعرفة والتجارب بين الشعوب .

كل هذا صحيح ، غير ان ما ذكرناه من تقدم علمي وتقني ومادي هائل لم يوازه ولم يرافقه تقدم معادل في السيطرة على المحيط الاجتماعي ، أي في العلاقات بين الافراد والجماعات والشعوب ، وهذه اولى مشكلات الحضارة الغربية . فقد نشبت في أقل من خمس وعشرين عاما حربان عالميتان ضروسان اطلقتا قوى الشر والدمار من قمقمها ، وهددتا كل ما شادته القوى البشرية المنتجة بالدمار والانهيار . وعلاوة على الملايين الكثيرة التي افنيت من زهرة شباب العالم ، اسلحة ملايين اخرى الى

الجوع والبطالة والتشريد والتشويه . حقـــا لقد سيطر الغرب على قوى الطبيعة عن طريق كشفها ومعرفتهـــا ، ثم عن طريق تنظيم هــذه المعرفة وتطبيقها في مختلف الحقول ، لكن ســيطرته على المحيط الاجتماعي لم تتم بالمستوى نفسه ، ومن ثم فانه عجز عن الحيلولة دون استخدام ثمرات العلم في تخريب ما شيده العلم نفســه . ان الكهرباء والمغناطيس والحرارة والطاقة النووية مثلا ، هي من النطاق الفيزيوي الطبيعي ، على حين ان القيم الاجتماعية هي من النطاق النفســاني المعنوي ، ويجب على الحضارة الراهنة ان تسعى لاقــامة توازن بين هذين النطاقين . ذلك ان كل اكتشاف في احدهما يؤدي الى خلل في التوازن . ان كل رقــم قياسي جديد في السرعة ، او اكتشاف قوة محركة او طاقة جديدة ، او زيادة في انتاج آلة من الآلات هو من المكتشفات التي تضر بالانسان اذا لم يواكبها اكتشاف في الميدان الاجتماعي كنظام جديد في تقسيم العمل ، او توزيع جديد للاموال ، أو مفهوم جديد عن العدالة الاجتماعية .

لقد ادت الثورة الصناعية وما اعقبها من تقدم علمي وتطبيق تقني الى آثار ونتائج ســياسية واجتماعية وفكرية خطيرة . فهذه الحضارة الآلية رافقها قيام النظام الراسمالي في الصناعة ومــا

عززه من نظريات « المذهب الحر » في الاقتصاد ، مما ادى الى التكالب على الاسواق الخارجية لتصريف المنتجات الصناعية الوفيرة من جهة ، وللحصول على المواد الخام اللازمة للصناعة من جهة اخرى . وكانت النتيجة الحتمية قيام التنافس الاستعماري على نطاق عالمي مما عصف بحرية الشعوب في آسيا وافريقيا ، وجعل بلدانها مناطق نفوذ تدر الخير على الشعوب المتغلبة . وجر الاستعمار العالمي فيما جر وراءه من المشكلات التي ما تزال بعض الشعوب تقاسي من آثارها البغيضة .

هذا وجه خارجي للحضارة الغربية ، اما الوجه البشع الآخر فهو نظام العمل داخل المصانع وانعكاسه على علاقات الاسرة خارج المصانع . ان الحاجة الى الايدي العاملة الرخيصة لزيادة الانتاج ادت في القرن التاسع عشر الى استخدام النساء والصبيان في اعمال التعدين والصناعة الشاقة . وقد روى المؤرخون ان كثيرا من الصبيان اصيبوا بالجنون والبله والشذوذ نتيجة لظروف العمل السيئة آنذاك ، كما أصيبت الاسر باختلال في علائقها الاجتماعية . ولقد اصابت هذه المجتمعات الغربية ازمة نفسية وفكرية حادة ونزعة من التشاؤم واليأس عبر عنها الفلاسفة امثال شوبنهور . وقيل انه حين الف غوته ـ شاعر المانيا العظيم ـ قصته

آلام فرتر ، وقرأها شبان ذلك العصر ، لجأ بعضهم الى الانتحار للتخلص من عناء الحياة والقلق . ذلك ان كثيرا من الافراد لم يستطيعوا مواجهة الحياة الجديدة المتغيرة بعقلية جديدة وقيم جديدة ، وفقد الكثيرون قدرتهم على التكيف

قلت ان الحضـــارة الآلية الحديثة تميزت بسعيها الدائب نحو زيادة الانتاج وزيادة الاستهلاك. ولبلوغ هدف زيادة الانتاج اوجدوا اساليب عقلانية تجابه الارهاق والاضطراب والقلق والملل الذي ساد اجواء العمال في المصانع والمناجم بحيث شـــل حيويتهم فلجأوا الى تكييف المحيط الالي وجعلـــه يأتلف مع طبيعة الانسان بحيث لا يكون عبدا للالة بل سيدا لها . هذه هي سيكولوجية العمل وعلم الاجتماع الصناعي اللذان مارسهما خبراء مختصون في انكلترا والمانيا وسويسرا وغيرهـــا من البلدان الصناعية : تخفيف الجهد البشري والسير به نحو « اللاوعي » والترفيه عن العمال بالمثيرات المبهجة ، وتحسين شروط العمل دون ان يؤدي ذلك الى نقص في الانتاج . وفي سبيل ضمان هذه الغاية الاخيرة ـ ـ اي زيادة الانتاج ـ لجأوا كذلك الى اسلوب تقسيم العمل ، واعـــادة ربط اجزائه المفككة على طريقة « السلسلة » ، ثم استثمار جهد العامل الى اقصى حدوده. ويذكر «آدم سميث» أن صنع دبوس واحد

اقتضى وحده ثماني عشرة عملية جزئية ، وفي احصاء أحدث ، ظهر ان صناعة الصداري في ليدز بانكلترا توزع الى ستين عملية مستقلة .

مسيرة العقل الظافرة

ان قصة الحضارة الغربية هـ يليست فقط قصة انتصار الانسان على قوى الطبيعة واخضاعها لاغراضه ، وانما هي ايضا قصة الدأب المتواصل لمواصلة هذا الانتصار .

ومنذ ان اكتشف « جيمس واط » الطريق الى الانتفاع بقوة البخار الحبيس ، حدث انقلاب في حياة الناس لم يتصوره هو نفسه : انه لم يتصور المصانع العملاقة والقطارات الجرارة والبواخر الضخمة تسير بقوة البخار . كما ان « بنيامين فرانكلين » ـ حين اجرى تجاربه في الكهرباء ـ لم يخطر بباله ان هذه الطاقة سوف تضيء من بعده آلاف المدن وتحرك آلاف الآلاف وتنقل الصوت وصور المرئيات عبر القارات الى مئات الملايين . والقول نفسه يسري على « جيمس كلارك ماكسويل » ، فقد وضع رموزا قبل نحو قرن اثبت فيها ان في الفضاء امواجا كهربائية مغناطيسية تشبه امواج الضوء المرئي في خواصها وقوانينها . وفي أواخر القرن الماضي كان احد العلماء قد اثبت

وجود هذه الامواج ، وقبل انقضاء القرن نفسه مهد لودج ويرانلي الطريق لأستخدامها ، وكان ماركوني هو الذي استخدمها في التطبيق فعلا . وما تم لمعادلات ماكسويل تم لمعادلات « اينشتين » ، فاليها يعود سر الطاقة الذرية .

هنا يجب ان نؤكد بأن هذا التقدم العلمي والتقني الذي اوصل الغرب لأن يقبض على اعنة الكون ، لم يكن وليد طفرة او صدفة ، وانما حصيلة تراكم مستمر في المعرفة منذ عصر النهضة (الرينسانس) ، الذي كان ثورة على نظرة العصور الوسطى . وقد تمخضت النهضة هذه (التي اصطلح على انها بدأت سنة ١٤٥٣ م)عن نظرة جديدة الى الانسان تقوم على أيمانها بقدرته على ادراك الحقيقة وبلوغ الخير والسعادة في هذا العالم الدنيوي ، بعكس نظرة العصور الوسطى التي دفعت الانسان الى التطلع الى العالم الاخر باعتباره عالم الخير والكمال والسعادة ، على العكس من العالم الدنيوي الذي هو مهد الشرور والاثم !

فماذا نتج عن تحرر العقل وايمان الانسان بنفسه وتحرره من القيود في اوربا منذ عصر النهضة ؟

١ ـ الانتاج المادي الوفير ، باستخراج موارد الارض ، والصناعة الآلية .

٢ ـ سيطرة الانسان على الطبيعة وتقليل اخطارها.

٣ ـ تقريب المسافات بين انحاء العالم بتقدم وسائل الاتصال .

٤ ـ توغل الانسان في دراسته واكتشافاته في الفضاء ونجومه واجرامه .

٥ ـ نظمت العلائق الاجتماعية بقوانين وانظمة توصل اليها الانسان بخبراته ومعرفته .

٦ ـ دخل العلم الى البيت والمدرسة والحقل والدولة ، وقد اصبحت المساهمة في هذه المؤسسات تتطلب فهما وادراكا وتنظيما متزايدا . ان من اهم مزايا المجتمع الحديث : الدقة والتشابك والتخصص ، وهي من سمات العقل الحديث .

٧ ـ تراكم المعرفة النظرية التي جاءت نتيجة البحث العلمي والجهد العقلي المتواصلين . ويكفي ان نتذكر كوبرنيك وغاليليو وديكارت ونيوتن وداروين ، وثورة الذرة المعاصرة ، وعلم الفضاء الذي يطبع عالمنا المعاصر والذي يسير قدما، لندرك اثر الجهد العلمي في تكوين العقل الحديث .

٨ ـ عبرت النفس البشرية عن ذاتها في روائع خالدة تمثلت في الرسم والنحت والموسيقى والمسرح

وهذا لعمري من اسمى مميزات الثقافة الحديثة .

٩ _ انتج العصر الحديث تراثا فلسفيا ضخما ، نتيجة التساؤلات العقلية العميقة في الحياة والكون وما وراء الحياة والكون .

لقد كان القرن التاسع عشر عصر النظريات الكبرى في اوربا بحق في نطاق الثورة الفكرية والنظريات العلمية ، كما كان ايضا عصر الثورة الصناعية والتطبيق التقني . ففي هذا القرن ظهر داروين (١٨٠٨ _ ١٨٨٢) وهو الذي توصل الى فهم جديد للطبيعة والكون والانسان ، وزود العالم بمنهج ثوري للتفكير والتفسير . ان كتابه « اصل الانواع » ارسى دعائم النظرية التي عرفت بـ « الداروينية » أو التطور ، تلك النظرية التي اثبتت ان جميع انواع الكائنات الحية (الحيوان والنبات) ترجع الى اصل واحد او اصول متقاربة ، وان الاستقرار لا يعرف في الطبيعة ، وان الكائنات الحية في تغير وتطور مستمرين . لقد قيل ان « غاليليو » حط الانسان من عليائه حين اعلن ان الارض ليست مركز الكون وانها كوكب صغير يدور حول الشمس ، في حين ان « داروين » رفع الانسان الى عليائه من جديد حين اثبت انه كان

وضيعا في الطبيعة ثم تطور فارتقى فاصبح سيد المخلوقات ومتميزا بعقله وبصيرته .

هل بدأ داروين جهده من نقطة الصفر ؟ كلا فقد سبقه علماء آخرون هم الذين نبهوه الى حقائق نظرية التطور . وحتى هؤلاء سبقهم بدورهم آخرون ، وهكذا يمكن القول ان الجهد العقلي المستمر والمتواصل هو الذي ارسى دعائم الداروينية ، كان « مالثوس » القسيس الانكليزي المحافظ قد كتب بحثا عن السكان مدافعا عن نظريته في ان الناس يتكاثرون على نظام تضاعفي في حين ان الغلة والغذاء ينتجان على نظام حسابي . ومن ثم فلابد من الحروب والاوبئة لكي يقل عدد البشر حتى يكفيهم الغذاء في الطبيعة ، وقد تلقف داروين هذه النظرية وفكر في امكان تعميمها على جميع الاحياء بحيث يقوم تنازع البقاء في الطبيعة فلا يبقى الا الاصلح .

وكان « لامارك » الفرنسي بدوره قد سبق داروين في دراسة اصل الانواع ، بل ان غوته شاعر المانيا (١٧٤٩ ـ ١٨٢٢) فكر في هذا الامر واشترك في المناقشات الحامية التي دارت بين (كوفييه) الذي قال بثبات الاحياء و (سانت هبلير) الذي نادى بتحولها وتغيرها ، فأيد بحماس مبدأ وحدة الوجود ومبدأ التغير والاستحالة .

وقد بقي داروين يفكر في التطور ثلاثين عاما دون ان يخرج بكتاب او بحث ، حتى فوجيء بأن العالم (وولاس) الذي كان يدرس الاحيـاء في الطبيعة في جنوب شرقي آسيا قد سبقه الى تعليل التطور بكون الغذاء في الطبيعة لا يكفي حاجة الاحياء المتزايدة التوالد . عندئذ اخرج داروين كتابه «اصل الانواع» . وقد اعترف (وولاس) بعدئذ ان العالم قد كسب بتزعم (داروين) لنظرية التطور بأعتباره أدق منطقا واوسع علما .

وقد حفل النصف الثاني من القرن التاسع عشر بالجدل والنقاش بشان الداروينية والتطور ، فمن مدافع عنها ومن معارض ، حتى غدت في جميع الاحوال طابع العصر في تلك الفترة والفترة اللاحقة من بدايات القرن الحالي . ويمكن اعتبار « نيتشة » (١٨٤٤ — ١٩٠٠) من كبار المتحمسين للداروينية ومنها استقى نظريته التي تقول بحق الاقويـاء في البقاء وبضرورة فناء الضعفاء . ولما كانت النتشوية تدعو الى ان غاية الحيـاة هي خدمة النخبة من الشخصيات السامية وليست خدمة الاكثرية ، فقد اعجب به هتلر فأخذ يشجع المتفوقين من الالمان على التناسل لينجبوا اجيالا ارقى تؤدي — مثلما اراد نيتشة — الى ايجاد « السوبرمان » أو الانسـان السامي .

وكان فرويد (١٨٥٦ ـ ١٩٤٠) من كبار المتأثرين بالداروينية ايضا ، وهو الذي توغل في النفس البشرية الى اعماقها فكشف القناع عنها بمفتاح جديد هو ما اسماه « العقل الباطن » . والشبه الكبير بين الداروينية والفرويدية يكمن في ان داروين قال بأن الجسم البشري هو ثمرة التطور وانه لذلك يخفي كثيرا من الاعضاء الاثرية القديمة التي ورثناها عن الارومة الحيوانية ، كذلك اثبت فرويد ان النفس البشرية ورثت وظائف وحشية قديمة واننا نتألم ونبتئس لاننا في صراع متصل بين هذه الوظائف الطبيعية القديمة وبين قيود الحضارة التي تمنعنا من ممارستها . وقال فرويد : ان الكبت الجنسي يؤدي الى اضطرابات شخصية ، وهو يجعل مستقبل الانسان متوقفا على سني الطفولة الاولى ، حيث يكون اللبيد الجنسي الناشيء عن كبت ايام الطفولة سبب النشاط الذهني والاجتماعي والفني . وهو بدعوته الى الانتقال من الفكرة الكامنة او الباطنة الى الوجدان او الدراية اوصلنا الى رحاب التحليل النفسي للتخلص من المركبات والعقد التي تنشأ عن الكبت الجنسي .

لكن الداروينية وما ادت اليه من القول بالوراثة اظهرت في اوربا ردود فعل اخرى اسفرت عن نظريات معارضة لها . فبدلا من القول بتنازع

البقاء في الطبيعة ، اثبت (كوربتكين) أن التعاون وليس التنازع هو شريعة الحياة في الغابة . وقد انتهى العالم مؤخرا الى التسليم بأن البيئة تغير الكائنات الحية ، وان هذا التغير بفعل البيئة يعود فيثبت بالوراثة . ففي ضوء التطورات في تجارب الوسط (او البيئة) لا نستطيع ان نسلم بمذهب نيتشة بأن نكون قساة لا نرحم ، فالتطور يصبح بالتعاون ، والبيئة تستطيع ان تغير . ونحن البشر بما وصلنا اليه من معارف (بيولوجية) نستطيع ان نزيد من سرعة التطور بالتنظيم الاجتماعي الذي يحقق الارتقاء (البيولوجي) .

الفكر العلمي عند العرب واثره في أوربا

ان الصلات بين العرب واوربا عميقة الجذور في التاريخ ، وقد مرت في ثلاث نقاط تحول رئيسة هي :

١ ـ الصلات بين الفكر العربي والفكر اليوناني خلال العصور الوسطى بطريق ترجمة فلسفة الاغريق وعلومهم ، يضاف الى ذلك اقتباس العرب بعض عناصر الادارة والعمارة والتشريع من الرومان .

وقد استطاع العرب ان يهضموا العناصر الغريبة التي اختاروها من حضارة اليونان والرومان

والهند وفارس ويدخلوها في نسيج حضارتهم هم ، بحيث وفقوا بين العقيدة الاسلامية والشخصية العربية وبين هذه العناصر الغريبة توفيقا مدهشا .

٢ ـ في ختام العصور الوسطى اعتمد الغرب على الفكر العربي اعتمادا كبيرا من اجل ان يعيد صلته بالفكر اليوناني القديم ، حتى ليمكن القول ان اعمال المفكرين العرب ومنجزاتهم كانت من الاسباب والعوامل الاساسية في قيام النهضة الاوربية (الرينسانس) .

٣ ـ الصلات الحديثة التي بدأت منذ اواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر ، والتي ادت الى ما يمكن ان نسميه (النهضة العربية الحديثة) التي أفادت من حضارة الغرب وثقافته .

وستتناول هنا طبيعة هذه الصلات في المرحلتين الاولى والثانية بشيء من الايجاز ، ونخص الصلات الحديثة بالاهتمام الاكبر ، لان هذه المرحلة الاخيرة بالذات هي موضوع هذا البحث بالدرجة الاولى .

★ ★ ★

كانت الثقافة اليونانية منتشرة في العراق والشام والاسكندرية . وكان للسريان فضل واضح

في نقل التراث اليوناني ـ الفلسفي والعلمي ـ الى لغتهم ، وذلك في مراكز اللغة والثقافة السريانية المهمة وهي حران والرهـا ونصيبين وانطاكيـة وقيصرية وغيرها . غير ان اللغة السريانية وادابها غلبتها اللغة العربية بعد الفتح وتفوقت عليهـا ، بحيث أصبحت هذه الاخيرة هي اللغة الثقافية في الشرق الادنى والاوسط .

خدم السريـان العلم والفلسـفة بطريق ترجمتهم عن اليونانية ، وكانت ترجماتهم هي المعول عليها عند العرب في البداية . وقد احتك العـرب المسلمون بالسريانية في المراكز التي اشرنا اليها في العصر الاموي ، وهو العصر الذي نقلت فيه مـن اليونانية بعض المعارف في الكيمياء والطب . وفـي الوقت الذي انصبت الترجمة في العصر الاموي على الامور العملية النافعة ـ وهي ترجمة فردية وغير منظمة ـ تغيرت الحال في العصر العباسي فأصبحت اعمال الترجمة اجماعية ورسمية . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان العباسيين تخطوا العلـوم العملية مثل الطب والنجوم والكيمياء الى نطـاق أوسع شمل الفلسفة والمنطق والرياضيات .

والحق ان عهد المأمون شهد اهتمامـا كبيرا بحركة الترجمة . وقد اسس « بيت الحكمة » في بغداد بمثـابة مجمـع علمي للدرس والبحث

والترجمة . وشجع هذا الخليفة العلماء على نقـــل كتب الفلسفة اليونانية الى العربية مباشرة ودون وساطة اللغة الســــريانية ، فطلب الى الامبراطور البيزنطي ان يرسل اليه مجموعة من الكتب اليونانية القديمة ، فأجابه الى ذلك ، وامر المأمون بنقل هذه الكتب الى العربية . وبسبب تشجيع المأمون وغيره من رجال الدولة، قصد بغداد عدد كبير من المترجمين من الشام والجزيرة وفارس وغيرهـــــا ، فيهم النســــاطرة واليعاقبة والفرس والهنود ، فقاموا بالترجمة من اليونانية والفارسية والهندية والقبطية الى اللغة العربية .

وقد اتاحت حركة الترجمة وانتشار الكتب المترجمة الى العربية ، للعرب ان يصححوا اخطاء القدامى من اليونان وغيرهم في كثير من المعارف ، كما انهم اضافوا من عندهم ملاحظـــات واراء قيمة ومبتكرة ، ولا ســـــيما في ميادين الطب والفلك والكيمياء والرياضيات . اذن ، فالعرب لم يكونوا مجرد ناقلين للفكر اليوناني وغيره ، فقد شــرحوا النصوص المترجمة واضافوا اليهـــا وصححوا اخطاءها ، وكان ذلك تمهيدا لانتقالهم الى مرحلة الابتكـــار . ويقول (براون) في هذا الصدد : ان العرب كانوا اكثر دقة في نقلهم تراث اليونان الى العربية من الاوربيين الذين نقلوا فيمـــا بعد كتب

العرب الى اللاتينية . ويمكن ان نضيف الى شهادة (براون) هـــذه ، ان العرب بترجمتهم التراث اليوناني الى العربية اسدوا خدمة كبيرة للثقــافة الانسانية ، فلولاهم لضاع كثير من آثار ارســطو وجالينوس وبطليموس وغيرهم من علماء اليونان .

واذا كان الفكر اليوناني يقوم على التـــأمل الفلسفي والفكري فان الفكر العربي الاسلامي — في الميدان العلمي — تبنى المنهج التجريبي وقد انتقــد العلماء العرب المنهج القياسي الارســـطوطاليسي الذي لم يعط التجربة مكانها في منهج البحث .

اننا لسنا بصدد تقديم عرض شامل لتاريخ الفكر العربي ، لكننـــــا نود ان نقدم بعض الامثلة البـــارزة التي تدلل على مكانة العقل عند كثير من العلماء العرب والمسلمين وعلى منهجهم التجريبي في الوصول الى الحقائق .

١ — رأى الفيلسوف العربي الكندي ان الاشتغال بالكيمياء من اجل تحويل المعادن الخسيســـــــة الرخيصة الى ذهب (وهو ما يســـمى بالسيمياء) مضيعة للوقت ، وهو يذهب بالعقل والجهد . كذلك رفض الكندي اثر النجوم في مصائر الناس ، وله رسالة في ان الفلســـــفة لا تحصـــل الا بطريق الرياضيات .

٢ — اعتبر الرازي العقل اعظم النعم وانفع الاشياء

فيه استطاع الانسان ان يسخر الطبيعة لمنـافعه ويكشف اسرار الأمور . وقد احل الرازي التجربة في بحوثه العلمية في المكان الاول ، لذلك اعتبر المنهج الذي سلكه قريبا من المنهج العلمي التجريبي الحديث.

٣ ـ رأى الفارابي ان الفيلسوف الذي يقتصر على العلوم النظرية ولا يتعداها الى الجانب العملي انما هو فيلسوف لا صلة له بالواقع . فالحياة ـ في رايه ـ عمل وعلم ، ولابد للفيلسوف ان يتميز في عمله مثلما يتميز في علمه . وقد سخر الفارابي ايضا من صناعة التنجيم وابطلها بحجج عقلية .

٤ ـ جعل ابن سينا للتجربة مكانا عظيما في ابحاثه، وتوصل عن طريقها الى ملاحظات دقيقة . ويتجلى سلطان العقل عند ابن سينا في رأيه الذي فند به التعليل التقليدي للخوارق ، فذهب في تعليله لها الى مذهب يمكن اعتباره عقليا .

٥ ـ كان البيروني عالما نزيها مخلصـا للحقيقة ، وقد تميز على معاصريه بروحـه العلمية ودقـة ملاحظته ، فهو يشاهد وينقد ولا يأخذ الا بما يتفق والعقل . ويقول عنه (شاخت) : « ان شـجاعة البيروني الفكرية وحبه للحقيقـة وتسـامحه واخلاصه ، كل هذا جعلته نسـيجا وحده في العصور الوسطى » .

٦ ـ يعتبر ابن رشد مؤسس الفكر الحر . وقد امتاز بروح النقد اللاذعة والصائبة . كان مجردا في تلقفه للحقيقة انى كان مصدرها . وقد سبق ابن رشد في نظرية العقل المؤثر والعقل المتأثر فيلسوفا جاء بعده بعدة قرون هو « ليبنتز » .

لقد ترك ابن رشد تأثيرا هائلا في الفلسفة الغربية ، وبعد ان قرر (ارنست رينان) ان ابن رشد رائد لكوبرنيك ، بذلت محاولات في الغرب للغض من شأنه وقالوا انه مجرد شارح لمؤلفات ارسطو ، واتجه بعضهم الى عدم رؤية ابن رشد الا عبر شروح علماء اللاهوت ، في حين ان هؤلاء كانوا الد خصومه .

يؤكد ابن رشد ان الاسلام يدعو الى دراسة عقلانية ومتعمقة للعالم ، وقد انزل في كتابه « فصل المقال » ـ الذي ترجم الى الفرنسية ـ ضربة قاصمة باللاهوت التقليدي . ان ابن رشد هو رائد (سبينوزا) في نظرية اللاهوت والدين ، كما ان نظرية علاقة الفلسفة بالدين عالجها بعد ابن رشد الفيلسوف هيغل في القرن التاسع عشر .

لقد سبق ابن رشد عصره بكثير بحيث ان ليبنتز بعده بقرون تناول حججه في رده على الغزالي

ليرد على كلارك حول خلود الطبيعة . كذلك فهم (دانتي) ابن رشـــد فهما عميقا ، وكرمه اجمل تكريم في النشيد الرابع من « الجحيم » حين وضعه الى جانب افلاطون وارسطو . بل ان روجر بيكون المفكر العظيم قدر تأثيره الكبير على الفلسفة وحكم عليه حكما عادلا .

لقد ترجمت معظم شروح ابن رشـــد الى العبرانية واللاتينية واصبحت ذات اهمية عظيمـة للدراسات الارسطوطاليسية في الغرب في العصور الوسطى ، وظل الباحثون الغربيون طوال ثلاثـــة قرون يدرسون ارسطو بمعاونة شروح ابن رشد .

٧ ـ عقد الكاتب الفرنسي شارل سومان فصلا عن الغزالي وديكارت قارن فيه بين نبـــذ من مؤلفي ديكارت (رسالة في الاسلوب) ، و (التأمـلات في الفلسفة الاولى) ـ اللذين ضمنهما قواعد الشـك الفلسفي ـ بنبذ من كلام الغزالي في كتابه « المنقذ من الضلال » . وقد توصل من هذه المقارنة ، ومن دراسة حياة ديكارت الى ان هذا الاخير اطلع على كتب الغزالي التي جاء بها المستشرقون الى اوربـا في القرن السابع عشر ، وعنه اخذ اسلوب الشك العلمي من اجل الوصول الى الحقيقة .

ويقول ســـــومان ان مدينة ليدن حوت في جامعتها عددا من المستشرقين من اصدقاء ديكارت

احدهم يعقوب غوليوس اســـــتاذ اللغة العربية والرياضيات هناك ، الذي عاد في سنة ١٩٣٩ من رحلة الى الشرق استغرقت اربع ســـنوات مزودا بمجموعة من المخطوطات العربية عرف ان فيها كتاب « المنقـــذ » من الضلال . للغزالي . وقـــد ذكر المســـتشرق دوزي في قائمته عن ليدن مؤلفـــا للغزالي تضمن الاجوبة التي يدفع بها شكوكه كـــان لا يطلع عليها غير صفوة خلانه ولا اثر لهذا الكتاب اليــــوم

٨ ــ وضع الحسن بن الهيثم اصول المنهج التجريبي في علم الطبيعة ، وقد اوصى باستخدام الاستقراء في البحث التجريبي كما يتضح من كتابه (المناظر) حيث يشير في مقدمته الى انه يبدأ باســـــتقراء الجزئيات ــ اي ملاحظة الظواهر الحسية الجزئية ــ ثم لا يكتفي بذلك ، بل يعمد الى التجريب الـــذي سماه « الاعتبار » . وقد اتيح لابن الهيثم بذلك ان يصل الى الحقائق ويصوغ القوانين العامة نتيجة مزاولته التجربة في دراسته في علم الضوء . وقـــد اوصى ابن الهيثم بما اوصى به فرنسيس بيكون بعده بستة قرون بضرورة اتباع منهج الاســـــتقراء وتنوع التجارب وتكرارها لتحاشي الوقوع في الخطأ (بيكون فيلسوف انكليزي راى ان يكون طريـــق السير بادئا من الطبيعة الخارجية وما نشاهده في

ظواهرها ، ثم نمضي داخلين الى فكرة عقلية نقيمها ونكون على يقين من صوابها . وهو على عكس ديكارت الذي اراد ان يكون السير العلمي بادئا من فكرة داخلية نثق في صوابها ثم نمضي خارجين منها الى بحث العالم الطبيعي وما وراءه) .

لقد نقلت اعمال ابن الهيثم ومنجزاته الى اللاتينية في اواخر العصر المدرسي Scholastic واثرت اعمق التأثير في الفكر الاوربي الحديث .

٩ ـ اعتبر (بيرثيلو) العالم العربن جابر بن حيان (ويسمى باللاتينية Geber) اعظم كيميائيي العصور الوسيطه ، وقد نشر في كتابه « الكيمياء في العصور الوسطى » ست مقالات كيمياوية اصيلة كتبها ابن حيان .

١٠ ـ يعتبر ابن خلدون بسعة افقه وشمول فلسفته الاجتماعية ومنهجه العلمي الفذ في تفسير الظواهر الاجتماعية ودراسة التاريخ الرائد للنظريات الحديثة في تفسير التاريخ وعلم الاجتماع. وكان يدعو العالم الى ان لا يكتفي بتجاربه الفردية ، بل ان يأخذ بنظر الاعتبار مجموع التجارب الانسانية . ويرى (دي‌بور) ان ابن خلدون كان اول من حاول ان يربط بين تطور الاجتماع الانساني من جهة وبين علله القريبة من حس الادراك لمسائل

البحث وتقريرها مؤيدة بالادلة المقنعة . لذلك اعتبر ابن خلدون مؤسسا لعلم الاجتماع قبل (اوغست كونت) بمدة تزيد على اربعة قرون ونصف .

ويقول المستشرق استفانو كلوزيو عن ابن خلدون في بحثه الذي عنونه « مقدمة لدراسة ابن خلدون » ما نصه : « اليس ابن خلدون باستنباطه على تقدم الزمن ان لمرافق الحياة ولشروط المعاش ومقوماته فعلا كبيرا في نشأة الطباع واكتساب الملكات الجديدة ، مدللا على بعد نظره ونفاذ بصيرته ؟ وما هذه الحقيقة ... الا مبدأ اساسي في علم الاجتماع يعود الفخر في تقريره الى هذا المؤلف المسلم قبل الفلاسفة الوضعيين وعلماء النفس العصريين بقرون متطاولة » .

١١ ـ احصى لكلار Leclar في كتابه « تاريخ الطب العربي » الاطباء في العالم الاسلامي ، مما يظهر بصورة واضحة ان الاطباء العرب تكاثروا بعد القرن الرابع الهجري فأصبحوا اكثر بكثير من الاطباء الذميين .

وما زالت هناك صورتان لاثنين من فطاحل الاطباء العرب القدامى هما الرازي وابن سينا في القاعة الرئيسة لكلية الطب بباريس .

والحق ان هذين العلمين يستحقان كل تكريم ،

فبالنسبة للرازي ـ الذي وضع اكثر من مائة مصنف في الطب ، اجدرها بالذكر « الكتاب المنصوري » الذي نشر في ميلان بايطاليا في القرن الخامس عشر باللاتينية . وتعتبر رسالة الرازي « الجدري والحصبة » اقدم بحث طبي يعالج هذين المرضين ، بل واول بحث سريري بالنسبة للجدري . وقد ترجمت هذه الرسالة الى اللاتينية اولا ، ثم الى عدة لغات اوربية حديثة ، مما جعل الرازي في نظر العالم من اقدر العلماء المبتكرين في مجال الطب السريري في العصور الوسطى . اما كتاب « الحاوي » فهو موسوعة في العلوم الطبية لخص فيها الرازي العلوم الطبية في عصره ، وقد ترجمت وطبعت في اوربا وظلت تدرس هناك قرونا عديدة .

اما ابن سينا فهو المع الاسماء في عالم الطب العربي ، واليه تنسب عشرات الكتب ، لعل ابرزها « القانون في الطب » الذي حوى تراث اليونان الطبي مضافا اليه آثار العرب . وقد نقل هذا الكتاب الى اللاتينية في القرن الثاني عشر واصبح الكتاب المدرسي المقرر منذ ذلك الوقت لمدة بضعة قرون . والمدهش ان « القانون » ظل يطبع منذ اواخر القرن الخامس عشر في عديد من الطبعات باللاتينية (وواحدة بالعبرية) . وفي القرن السادس عشر وحده طبع اكثر من عشرين مرة . وقد نقل

« القانون » في الاونة الاخيرة الـى الانكليزيـة . وسبب كل هذا الاهتمام بـ « القانون » يرجع الى كونه يحوي معرفة منظمة ومبوبة وشاملة ، ولانه ميز بين انواع الامراض ونص‌عدى تلك التى تنتقل بالعدوى بواسطة الماء والهواء . كل هذه المزايـا رفعت كتاب « القانون » للشيخ الرئيس ابن سينا (كما كان يسمى) الى اعلى المراتب في الاوسـاط العلمية في اوربا ، فظل العمدة المعتمدة في الطب حتى القرن السابع عشر .

اما كتاب « الشفاء » لابن سينا ايضا ، فهو موسوعة علمية شاملة ، وقد طبع ملخصه مع كتاب « القانون » في روما سنة ١٥٩٣ .

١٢ ـ تجـاوز العرب في علم الفلك حدود النظريات الـى الميدان العملي والرصد . ويقول (نللينو) في كتابه « علم الفلك وتاريخه عند العرب في العصور الوسطى » ما نصه : « اما قياس العرب فهو اول قياس حقيقي اجري مباشرة ، مع كل ما اقتضته تلك المساحة من المدة الطويلة والصعوبة والمشقة ، واشتراك جماعة من الفلكيين والمساحين في العمل . فلابد لنا من ان نعد ذلك القيـاس من اعمال العرب العلمية المجيدة المأثورة . »

وقد ابدى نللينو اعجابه بنظريـة البيروني

لمعرفة مقدار محيط الارض في آخر كتابه « الأسطرلاب » .

لقد ضبط العرب حركة اوج الشمس وتداخل فلكها في افلاك اخرى . ودققوا في حساب طول السنة الشمسية . وحقق (البتاني) مواقع نجوم كثيرة ، حتى أحله علماء الغرب في الصدارة بين علماء الهيئة في جميع العصور ، وقد كتب العرب عن كلف الشمس وعرفوه قبل الاوربيين ، وفي هذا الصدد يقول (سارتون) : انه على الرغم من نقص هذه النظريات فأنها مفيدة ومهمة جدا ، لانها سهلت الطريق للنهضة الفلكية الكبرى .

لقد اخرج علماء الفلك العرب هذا العلم من دائرة اوهام التنجيم واعادوه الى ما تركه عليه علماء اليونان علما رياضيا مبنيا على الرصد والحساب .

١٣ ـ اعتبر العرب واضعي لفظة « جبر » في الرياضيات ومنها اشتق هذا العلم في اوربا Algebra ويمكن القول ان الخوارزمي هو مبتكر نظريات الجبر ، وقد مهد الطريق لمن جاءوا بعده في استخدام الرموز في الاعمال الرياضية ، فقد استعمل ابو الحسن القلصاوي (في القرن التاسع الهجري) الرموز المستخدمة الان للجذر والمجهول ومربعه ومكعبه . وان بحوث

عالم الرياضيات العربي ابن حمزة المغربي (من علماء القرن العاشر الهجري) تدل على انه مهد الطريق حقا لاختراع « اللوغاريثمات » وان بحوثه في المتواليات كانت الاساس الذي بني عليه هذا العلم .

٤ ١ـ وفي الجغرافية ، اثارت ابتكارات العرب وخرائطهم الدقيقة اعجاب العلماء المحدثين فأقروا ان الجغرافيين العرب صححوا كثيرا من اخطاء اليونان المتعلقة بالارض وابعادها . وقد أوجد ابن ماجد (توفي سنة ٩٠٠ هجرية) ادق خريطة بحرية ، ولعلها الاثر العربي الوحيد في هذا الميدان وقد استعان بها فاسكودي غاما في جولته البحرية حول رأس الرجاء الصالح .

وقد قامت شهرة الادريسي (في القرن الثاني عشر) على كرته الارضية التي صنعها لروجر الثاني ملك صقلية ، ونحن نجد كثيرا من الاسماء والمواضع التي فيها على خرائطنا العصرية .

لقد كشف الرحالة المسلمون عن التيار الحار الذي يأتي من خليج المكسيك وخواصه وحركته حتى ايرلندة ، فكانوا يركبونه من موضع الى موضع بحيث انهم اثاروا دهشة سكان جزر المانش واهالي جزيرة ايرلندة .

١٥ ـ لقد ساد العرب المسلمون في شبه جزيرة ايبريا عدة قرون ، ولم يسلموا آخر قلاعهم الا في نهاية العصر الوسيط . وقد حكم المسلمون صقلية وتركوا فيها حتى بعد اخراجهم في القرن الحادي عشر الميلادي طائفة اسلامية ظلت تعيش هناك حتى سنة ١٣٠٠ م . ولسنا بحاجة الى القول ان صقلية كانت المنفذ الثاني بعد الاندلس الذي تسربت منه حضارة العرب المسلمين الى اوربا .

اما المنفذ الثالث فهو الحروب الصليبية التي تمثل القوة التي سببت الازدهار الاقتصادي والسياسي والفكري في الغرب .

ومن المحتمل جدا ان اوربا تلقت من الشرق الاسلامي الاختراعات الثلاثة التي منحت وسائل النقل نقلة قوية في بداية الثورة التجارية ، وهي ربط الدواب واحدة وراء الاخرى ، والطوق الصلب حول كتف الحصان ، ووضع الحدوة للخيول . ويبدو كذلك ان استخدام البغال على نطاق واسع للحمل (وهي أقدر على السير مسافات اطول من الخيل) ثم بعد القرن العاشر الميلادي اي بعد ان تقدمت تربيتها في البلاد العربية وانتقلت من افريقيا الى الاندلس فأوربا ، فانخفضت اسعارها .

١٦ ـ ان كافة انواع السفن تقريبا التي

امتطت متن البحار منذ القرن الحادي عشر الميلادي حتى بدايات العصر الحديث أصلها عربي واسلامي . ويمكن ان نتصفح قاموسا للاشتقاقات لنرى ان المصطلحات البحرية المستخدمة بعد القرن العاشر الميلادي يرجع نصفها على الاقل الى أصل عربي (او بيزنطي) . ولا يقتصر هذا على السفن وانما يشمل كذلك القاب الضباط واسماء المصانع البحرية ومفردات الملاحة . فأميرال لفظة جاءت من تعبير « امير البحر » ، والترسانة Arsenal من تعبير « دار الصناعة » ولفظة Cable (اي الحبل الغليظ) من لفظة « حبل » وهكذا .

١٧ ـ وقد ساعدت بعض المباديء والافكار على النهضة الاقتصادية في الغرب ، منها عطف الدولة العربية الاسلامية على التجار مما ساعد على النشاط التجاري والمبادلات في المنتوجات الصناعية والزراعية . وقد اثر العرب تأثيرا حاسما في تطور الصيرفة والمعاملات المالية وادارة الاعمال في اوربا الوسيطة ، واذا تصفحنا قاموسا للاشتقاقات نجد الفاظا لا تعد ولا تحصى في اللغات الاوربية اصلها عربي مثل : Cheque (صك) ، و Tarif (تعريفة) ، و Magasin (مخازن) ، و Bazar (البازار اي السوق) و Fendraq (وهي الفندق

بالايطالية) وغيرها . ان قائمة الالفاظ المأخوذة عن العربية في اللغتين الانكليزية والالمانية قد تقرب في طولها من قائمة الالفاظ الفرنسية المأخوذة عنها ، وهي في اللغة الايطالية اطول بكثير . اما في اللغتين الاسبانية والبرتغالية فهي قائمة ضخمة .

١٨ ـ وهناك احتمال كبير جدا في ان تكون النقابات والحرف في الغرب قد اخذت الكثير من ملامحها من الشرق . ونحن نشاهد في بغداد ثم في القسطنطينية وفي الوقت ذاته في ايطاليا واوربا الشمالية الغربية ازدهارا فجائيا في التنظيمات الحرفية والنقابية في القرن العاشر الميلادي تقريبا . كما نشاهد اوجه شبه بطوائف واصناف الحرف الشرقية ظاهرة للعيان في جنوب اوربا . وفي ممالك ايبريا المسيحية تكثر الدلائل على التأثير الاسلامي .

١٩ ـ من المحتمل جدا ان اوربا تلقت من الشرق نظام العقود والشركات ، وفي البلاد التي خضعت للمسلمين احتفظ عقد الربا الذي عرف بـ « المهاترة .. (عقد المخاطرة) زمنا طويلا باسمه ومميزاته في العرف القانوني الأسباني وكذلك اخذت اوربا عن القانون الاسلامي عقود المقارضة وشركة العنان .

٢٠ ـ بين القرنين العاشر والثالث عشر ،

استوردت الى الغرب مصنوعات حريرية شرقية اتخذت انموذجا ، اعقبه صنع منسوجات مقلدة ثم صنع رسوم تشابكت فيها الزخارف البيزنطية والاسلامية بطريقة مبتكرة . وقد اشترى الايطاليون المنسوجات الحريرية السورية ورفعوا اسعارها ، ثم خطوا خطوة اخرى فصنعوا اقمشة مماثلة لها .

٢١ ـ ادخل العرب الى صقلية واسبانيا زراعة قصب السكر والقطن وزرعوا النارنج في صقلية فتحول على مر الايام الى البرتقال اللذيذ الطعم الذي انتشر في بساتين ايطاليا . وقد اتت زراعة شجر التوت في ايطاليا على يد المسلمين نتائجها الطيبة في انتاج الحرير في عصر النهضة .

★ ★ ★

انا لسنا في سبيل ايراد جرد لمنجزات العرب العلمية والفكرية في العصور الوسيطة ، وكل ما اردنا هو ايراد بعض الامثلة للرد على الاتهامات التي وجهها لفيف من الباحثين المتعصبين . صحيح ان على الباحث ان يعترف بأن الفكر العربي الوسيط لم يكن برمته عقلانيا وعلميا ، غير انه ليس من العدل ان نطلب من شعوب العصور الوسطى ان يكونوا كما نريدهم اليوم ، بل ان المدنية الحديثة نفسها تحتوي على جوانب غير عقلانية . ونحن نعلم ان

الدين كان اشد القوى تأثيرا وفاعلية في العصور الوسطى ، وقد احتل مكان ما نسميه بالقومية والوطنية ، ومن ثم فلا غرابة في ان العلماء المسلمين كرسوا جانبا من مجهوداتهم الفكرية للمسائل الدينية والفقهية .

ومع ذلك فان في الاسلام جانبه العلماني والعملي القوي الذي يبرز بوضوح في الميل الى اقامة عدل اجتماعي يتمثل في تحديد الامتيازات الطبقية والعمل على تحرير الانسان وتشجيع العمل والانتاج ، ويتمثل كذلك بالدعوة الى اقامة « التضامن الاجتماعي » ، ويتمثل ـ قبل ذلك ـ في احلال العقل في منزلة عليا .

ولابد ان نشير الى ان الفكر العربي الاسلامي قاسى الجمود وفقدان الحيوية والاصالة مدة خمسة قرون او تزيد ، كان العالم العربي خلالها يئن تحت ثقل اسوأ انماط الحكومات الاستبدادية : المغول والاتراك وغيرهم ، وخلال هذه الحقبة الطويلة توقفت اكثر النشاطات العقلية والثقافية والابداعات الفنية ، وتحولت الثقافة العربية ـ خلال تلك القرون ـ الى قوالب لا حياة فيها والى اشكال متكررة ، في حين اختفت النزعة العقلية او كادت . وقد استمر هذا الجمود الفكري والركود الاجتماعي حتى نهاية القرن الثامن عشر .

زخم الحضارة الاوربية الحديثة

يمكن ان يقال بحق ان تاريخ الوطن العربي منذ القرن التاسع عشر هو تاريخ تغير وتحول مستمرين من مجتمع اسلامي شبه مغلق على نفســـــه ، الى آخر يتعرض فجأة الى زخم الحضـــارة الغربية الجديدة الطـارئة .

لقد مرت بالمجتمع العربي عـدة قرون مــن العزلة والسكون والجمود والاضمحـلال حتى بلغ الحضيض في القرن الثـامن عشـــر . ففي ظل الاحتلالات الاجنبية المتعاقبة ـ منذ الغزو المغولي ـ توقفت حركة الابداع ، وتحولت التقاليد الثقافية الى قوالب جامدة وشـــكلية ، ونضبت الموارد الاقتصادية واستنزفت مدى قرون خمســـــة . وقد أصاب التدهور كل مرافق الحيـــاة وجوانب النشـــــاط .

كانت الامبراطورية العثمانية الشاسعة المتعددة الاقاليم والقوميات والاديان قد ناءت بكلكلها على الوطن العربي ، وفي القرن الثامن عشـر كانت هذه الامبراطورية ذات الحكم الاستبدادي قد خلقت انظمة محلية ضعيفة تتميز بالفوضى ، ولم يكن من هم للولاة في ظلها الا ارضاء الســـــلطة المركزية في اسطنبول . اما المجتمع فكـان في كل اجزاء الوطن

العربي يعيش حالة من الاستسلام السلبي ، والقناعة بما قسم له ، غير متسائل عن مصيره ، وغير مكترث لما يدور في اوربا في هذا القرن من تفجر خلاق لجميع الطاقات . وقد حجبت الامبراطورية العثمانية عن الولايات العربية التحولات الكبرى المثيرة التي كانت تجري انذاك في بنى القوى العالمية .

كان الغرب في تقدم مستمر في العلم والتقنية والصناعات الحربية ، وفي الثقافة والعلوم والاداب والفنون والفلسفة والنظريات السياسية . وكان الغرب ايضا منهمكا ومندفعا بحيوية لتعزيز نظام الدولة القومية وتشجيع نمو الولاء القومي ووحدة الوطن . يقابل هذا في ولايات الدولة العثمانية : التقنية الحربية العتيقة المتخلفة المعتمدة على الدروع وفرق الخيالة ، والتفكك التدريجي في وحدة الدولة والولاء لها ، بحيث غدا ارتباط ولاياتها بها ارتباطا اسميا ليس له اية قاعدة عضوية . وكان المواطنون داخل ولايات الدولة العثمانية يشعرون بأنهم مقموعون ، وبأن العدالة ضائعة والتفسخ يسري في كل مرفق من مرافق المجتمع . وكان النظام الاداري ابرز مثل للانحلال : ضياع النزاهة ، وفقدان القدرة والكفاءة ، وعوز الموظفين الى الثقافة والمعرفة والشعور بالمسؤولية العامة . وفي ظل هذه

الظروف فقد المواطنون الثقة بالدولة نتيجة سوء تصرف الادارات المحلية وموظفيها الذين زادوا من سعة الهوة بين السلطة المركزية والمواطنين في الولايات .

كان العرب في القرن الثامن عشر يتذكرون ماضيهم المجيد وتراثهم القديم فيشعرون بالكبرياء تجاه الاوربيين ويعتبرونهم متأخرين . ان هذا الموقف كان مبنيا على تصور مسبق انتقل من جيل الى جيل حتى رسخ في الاذهان ان الاوربي لا يملك قيمة حقيقية او شيئا ذا اهمية يستطيع ان يقدمه للعالم . وقد عزز هذا التصور انتصارات العثمانيين الأولى التي بهرت انفاس الغرب وخلبت ابصارهم . وحتى هزائم الامبراطورية العثمانية المتلاحقة لم يعترف بها رعايا الامبراطورية ورفضوها ، خاصة وان العثمانيين كانوا يخفونها بحيث ان هزائمهم المريرة لم تصل الى الولايات من قبل الترك وانما بطريقة غير مباشرة .

وفي عام ١٧٩٨ ظهر الاوربيون ممثلين بجيش نابليون بونابارت الظافر فجأة ودون انذار في اهم مركز من مراكز الولايات العربية وهي مصر ، ووجه ضربة ماحقة مهينة للجيش المملوكي . هنا بدأت صورة جديدة تتكون عن الاوربي ، لكنها صورة فرضت قسرا ونتيجة مجابهة بين ثقافتين مختلفتين

وعالمين متناقضين . ومن ثم بدأت المحـــاولة لفهم القادمين الجدد والثقافة والحضارة التي يمثلونها ، غير ان عملية الفهم هذه كانت بطيئة ومتعثرة ومحاطة بالشكوك وســـوء الفهم ، لذلك لم تؤد الى توجيه تطور العرب توجيها كـاملا نحو الغرب . لكنه يمكن القول انه منذ حملة بونـــابرت تحول الوطن العربي من الافتراق والابتعاد المعادى عن الغرب الى موقف جديد هو ان كلا المجتمعين ـ وان كان ذلك على مستويات مختلفة ـ فريد في نوعه ، لكنهمـــا يستطيعان ان يلتقيا في صعيد واحد . لقد ساعدت الحملة الفرنسية على ايجاد حافز للتغيير في الوطن العربي ودفعت لفيفا من النخبة المثقفة الى الدعوة لتبني الانموذج الغربي الحضاري والثقافي .

ان حملـــة بونابرت على مصر ـ رغم قصر مدتها ـ ادخلت بشكل مكثف الفكر الفرنســـي الليبرالي في الوطن العربي . فقد كون المهندسون والاطباء والجيولوجيون وعلماء الفلك والمؤرخون والفلاسفة والصحفيون الذين رافقوا الحملة بؤرة للفكر اللبرالي والعلمي الفرنسي . وقد اسست مطبعة لنشـــر البحوث العلمية المنجزة . انه على الرغم من قصر اقامة بونابرت في مصر ، فان نتائج حملته كانت كبيرة ، لانها كونت تحديا مباشرا لنمط الحياة والفكر في الوطن العربي ، وظهر منها بوضوح

عمق الهوة الثقافية والحضـــارية التي فصلت الاوربيين عن الشرقيين .

ان التحول الذي حصل خلال فترة تزيد قليلا على قرن ونصف من الاتصال المستمر الذي اعقب الحملة الفرنسية ، انمـــا هو تحول معقد ومثـير للاهتمام . لقد اشرت هــذه الحقبة مرحلة تحول مجتمع « تقليدي » الى مجتمع يحـاول ان يرتبط بالتقنيات الحديثة والنظم الاجتماعية والسياسية والمشكلات الحديثة ايضا . ان دراسة الصلة بـين العرب والحضارة الاوربية تستدعي دراسة طبيعة الثقافة المقتبسة والاثار التي تركتها . ولكي نفهم هذه الظاهرة يجب ان ندرس حالات كثيرة لجوانب مختلفة من عملية « التغريب » Westernization

انا نعني بالتغريب عملية التغير الاجتمـاعي والسياسي في الوطن العربي الذي شمل عملية نقل الثقافة الغربية الى البيئة العربية وما طرأ من تغير على الثقافة العربية نفسها وكذلك طبيعة التغيرات سواء كانت امرا حسنا او غير حسن . وعلى الرغم من ان تعبير « التغريب » لا ينطوي على كل المعاني التي نتوخاها ، الا انه اصلح من التغييرات الاخرى المحدودة المعنى والتي شـــاعت في التداول مثل « التصنيع » الذي يؤكد على جانب واحد في حين

يهمل الجوانب الاخرى ، او تعبير « التحـديث » Modernization الذي يشمل معاني اوسع بكثير من الصــلات بين العرب والغرب او بتعبير اخر يشمل عملية تغير المجتمع العربي الـى مجتمع عصري وحديث ، ومع ذلك فيمكننــا ان نستخدم هنا التغريب والتحديث كمترادفين . ان التغريب (او التحديث) يشمل كذلك نقل مختلف جوانب الثقافة والحضارة الغربية وتنوع الوسائط التي تنقل بها هذه العناصر . وقد يشــمل كذلك الاثار التي تترتب على نقل الة جديدة (اي ما يتعلق بالمهارات الحرفية) او نظام تـربوي تعليمي (اي مايتعلق بالنظم الاجتماعية) او فكرة (اي مايتعلق بـالايديولوجية) مثـــل القومية او الحكومـــة الدستورية . او قد يشير الى تبني انماط السلوك المقترنة بمثل هـــذه المهارات الصناعية والنظـم والايديولوجيــات .

ان درجة امتصاص اي عنصر حضاري (مادي أو ثقافي) من حضارة اخرى تختلف عن اي عنصر آخر . ففي حالات معينة قليلة نجد من الممكن تبني ظاهرة ثقافية جديدة بحرية ودون خطر ناشيء عن قيام صراع او صدام مع الانماط الثقـــافية او الحضارية القائمة في المجتمع . لكن الاكثر شيوعا ان الظاهرة الجديدة قد تتعايش بصعوبة ولفترات

طويلة مع الانماط القديمة ، بحيث يتم الاندمـاج او التحوير المتبادل بين القـديم والجـديد بصـورة تدريجية . ان الدراسات عن التغير الاجتماعي في الوطن العربي المعاصر تؤكد جملة حقائق : في بعض الاحيان الجديد يطرد القديم بعـد زوال الصراع ، وفي احيان اخرى تدخل الظاهرة النافعة فيمتصها المجتمع دون صراع ، وفي احيان ثالثة يظل القديم رافضا للعناصر التي تدخل قسرا فيطول الصراع بين الجديد والقديم .

من هم ناقلو الحضارة الغربية والثقـافة الغربية الى الوطن العربي ؟ وماهي الوسائل التي تمت عبرها عملية الايصال الثقـافي هذه ؟ يمكن القول ان بعض هؤلاء كانوا اجانب عاشوا في الوطن العربي فقدموا دون قصد انماطا حـاول العرب تقليدها ، ومن هؤلاء من ادخل خططا اختصاصية ونظما اجنبية ، ومنهم كذلك من آثر عبر التعليم .

والصنف الاخر من نقلة الثقافة الغربية هم العرب انفسهم الذين اتصلوا بهذه الثقافة ، فمنهم من تأثروا نتيجة تعاملهم المباشر مع الاجـانب في بلدانهم في حين تأثر آخرون نتيجة اتصـالهم غير المباشر بالثقافة الغربية عن طريق الكتب او نتيجة سفرهم الى الخـارج . وبغض النظر عن مصدر التأثير ، فقد لعب هؤلاء جميعا دورا حاسـما في

ادخــــال التغيرات الى المجتمع العربي . ولا يقل اهمية عن هؤلاء ، اولئك الــذين كان لهم دور غير مباشر ، اي اولئك الذين نقلوا بواسطة مؤلفاتهم الى مواطنيهم صورة عن المجتمع الغربي ومنجزاته .

واذا شئنـــــا ان نقارن بين مدى تأثر العرب بالغرب في القرن الثامن عشر ، ومدى تأثرهم به في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، نجد امامنا مثلين بـــارزين : فحين كتب عبدالرحمن الجبرتي تاريخه اسفر عن جهل شبه تام بالخلفيــة المتعلقة بالقوى التي احتلت مصر . في حين نجد ـ على صعيد آخر ـ مجلة اسبوعية تصدر في سنة ١٨٧٠ باسم « الجنان » يكرس صاحبها بطرس البستاني الحيز الاكبر من صفحاتها للشؤون الاوربية ، مما يعكس ولع القراء بمـــا يجري في الغرب آنذاك . والحق ان « الانتلجنتسيا » العربية حصــلت في السبعينات من القرن الماضي على معرفة واســعة ـ وان تكن غير متوازنة ـ عن التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقــافية في الغرب ، وبصورة اخص في فرنســـــا . وقد اخذت هذه المعرفة تؤثر في المناخ الثقافي ، وبخاصة في اوساط الشباب الذين اخذوا يمارسون ضغطا على القادة التقليديين من مثقفي الجيل القديم ليحثوهم على

تغيير المجتمع بما يطـــابق الانموذج الغربي الذي يحلمون به .

وعلى صعيد آخر كان رد الفعل عند القادة التقليديين من ابناء الجيل القديم ادانة لما سموه بـ « التفرنج » اي الافراط في تقليد الغربيين في كل شيء . مثال ذلك الهجوم الذي شـــنه نوفل الطرابلسي في سنة ١٨٧٤ على من اسـماهم بالـ « المتمدنين » الــذين يعجبون بفولتير ويعتبرون قراءة مؤلفاته الطريق الى التمدن ، كذلك حــذر بطرس البستاني شباب عصره من « التفرنج » اي تقليد الغربيين دون قيد او شــرط . اما حسن المرصفي فقد الف كتابا في عام ١٨٨٠ كرســـه للموضوعات التي ناقشها الجيل الجديـد مثل : الحرية والامة والوطنية والدولة ، وهي المفاهيـم التي تدلل على الثورة التي تفجرت في المناخ الثقافي العربي آنذاك . وقد حاول ان يفســـر الافكار السياسية الغربية هذه التي تحمس لهـا الشبان بحيث يجعلها مطابقة لوجهات النظر التقليدية .

ان المرحلة الاولى من الاتصال الثقـــافي بين العرب والغرب والتي يمكن ان نجعل نهايتهـــا في السبعينات من القرن الماضي ، اتسمت بأن رواد « التغريب » كانوا مؤلفين ومترجمين ورحالة نقلوا

الى مواطنيهم العرب تـــأثرهم العميق بمنجزات الغرب ، وبخاصة في حقل النظام السياســـي : الدستورية ، والحد من السلطة المطلقة ، والحريات الشخصية والعامة ، والعدالة الاجتمـــاعية ، واعتبروا هذه دلائل الصحة في النظام السياســي والاجتماعي الاوربي . وقد عزا هؤلاء الرواد تقدم اوربا الى الروح الحرة في البحث والتفكير والى تقدم المؤسسات العلمية والاكاديمية التي تأخذ الدولة بيدها دون ان تسيطر عليها . كذلك اعجب هؤلاء بالتعبير الادبي في المجتمع الغربي المستقل عن القيم النفعية . وقد ادى بهم هذا الاعجاب الى ترجمة اهم الاعمال الادبية . الانسانية . غير اننا يجب ان نؤكد هنا بأن معظم الجهود التي رافقت هذه الاعمال كانت بطريق رسمي ، اي نتيجة البعثات العلمية والترجمة وخاصة في عهد محمد علي وخلفائه في مصر . لقد كانت مصر في الحق المركز الاهم لحركة التعرف على الغرب خلال العقود الاولى من القرن التاسع عشر ، وقد لعبت دورا اساســيا في نقل التنظيم الاداري الغربي والثقــافة الغربية . وقد اثمرت جهود محمد علي في عهد خلفائه ، بحيث نجد في عهد الخديوي سعيد (١٨٥٤ ــ ١٨٦٣) اعدادا متزايدا من الاشخاص ذوي التعليم الغربي والذين اثروا في القرارات التي اتخذها خديوي مصر . ان

التغيرات التي نتجت عن « التقنيات » الجديدة سدت الطريق على الاختيار الحر ، حتى غدت مصر عاجزة عن اي اختيار لاسلوب حياتها امام تدفق التغيرات والتحولات الجديدة التي افضت الى الاحتلال البريطاني سنة ١٨٨٢ .

وفي سوريا ولبنان جرت تطورات في الاتجاه نفسه وذلك على يد البعثات التبشيرية التي وصلت اليها منذالقرن الثامن عشر ، والتي وسعت نشاطها ابان القرن التاسع عشر . وخلال النصف الاول من القرن فتحت مدارس ابتدائية ثم افتتح معهدان للتعليم العالي في بيروت هما الكلية البروتستانتية السورية (وهي جامعة بيروت الامريكية الان) التي تأسست سنة ١٨٦٦ ، وجامعة القديس يوسف التي اسست في سنة ١٨٧٤ . وقد ساعد الغربيون انفسهم الذين عملوا في التدريس والادارة او في النشاط التجاري على احداث التغيير في سوريا ولبنان .

فاذا تجاوزنا السبعينيات من القرن الماضي ، ندخل في المرحلة الثانية من التغريب ، وهي التي تتسم بجهود العرب انفسهم في هذه العملية . لقد كثر عدد العرب الداعين الى الاصلاح في جميع الميادين . كانت هذه الدعوات ـ في هذه المرحلة ـ فردية لا علاقة لها بجهود الدولة ، وكانت في الوقت

ذاته غير مبرمجة وان كانت واضحة الهدف : الاصلاح الشامل وفق المثال الغربي . ونحن نجد في هذه المرحلة اعدادا متزايدة من الترجمات للكتب الاوربية تمت ليس تحت اشراف حكومي وانما لمجهودات فردية وبسبب تزايد الطلب عليها من القراء .

لقد كانت الكتب بعد سنة ١٨٧٠ متنوعة وتعكس الطموح المتنامي للقاريء العربي المثقف . وقد ظهرت كتب مترجمة أصيلة تنبىء عن اجادة المترجمين للغات الغرب ومضامين ثقافته . وفي هذه الفترة لعب لبنان دورا بارزا في حركات الاصلاح و « التغريب » .

من هم ابرز الرواد العرب الذين تصدوا لنقل ثقافة الغرب الى مواطنيهم ؟ يقف في مقدمة هؤلاء رفاعة الطهطاوي الذي وصف اقامته في اوربا وصفا يعتبر الاول من نوعه . كان يشعر ان عليه واجبا يتحتم انجازه . واذا رجعنا الى كتابات الطهطاوي (وبخاصة كتابه التخليص) نجده يدعو المسلمين الى التخلص من الجهل واقتفاء آثار الغرب في علومه وفنونه . كان هدف الطهطاوي تبصير قومه بالاوضاع في اوربا كما شاهدها هو بأم عينيه . وقد تمنى لو ان المسلمين حذوا حذو « الكفار » ـ على

حد تعبيره ـ واقتبسوا منجزاتهم العلمية ليتخلص العالم الاسلامي من الجهل .

لقد كرر الطهطاوي فكرة تفوق الغرب على العالم العربي في المعرفة كثيرا في كتابه « التخليص »، فهو يقول : ان البلاد الاوربية وصلت الى اعلى مرحلة من الكمال في العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفة وغيرها ، بل ان بعض علماء الغرب يسهمون في العلوم العربية ذاتها . ان الغربيين متفوقون على العرب في جميع المعارف عدا العلوم الدينية . ويقول الطهطاوي : انه كان مضطرا الى ترجمة كتاب فرنسي مقرر في الجغرافية لتدريسه في المدارس المصرية لانعدام وجود أي كتاب مقرر في هذا العلم في مصر باللغة العربية . وفي مقدمة ترجمته لقوانين نابليون ـ القانون المدني الفرنسي ـ يبرر عمله بأن الخديوي أمر بذلك حتى لا تجهل الرعية مبادىء العدالة في الدول الاوربية .

وحين يتصدى عبده خليفة محمود ـ وهو مترجم مصري ايضا ـ لترجمة « تاريخ حكم الامبراطور شارل الخامس »يبرر عمله بأن الكتاب ذو أهمية في عرض تطور المجتمع الاوربي ، وان محمد علي باشا يرغب في اطلاع شعبه على أحداث اوربا ومعارفها .

لقد توصل ناقلو الفكر الغربي هؤلاء الى نتائج اهمها : ان اوربا سبقت العالم الاسلامي كثيرا في ميادين المعرفة والتنظيم السياسي . ان تفوق اوربا في النظام السياسي يعزى ـ في رأيهم ـ الـــى ان المجتمع الاوربي بني على الحرية والعدل ، مما اتاح له أن يتقدم بسرعة وسهولة في حقول المعرفة وفي التطور الصناعـــي . وقـــد أهاب هؤلاء الـــرواد بمواطنيهم ان لا يهجروا تراثهم من أجل اللحـــاق بحضارة متفوقة ، بل يجب ان يكونوا حذرين غاية الحذر ومعتدلين أشد الاعتدال في اقتباس مـــاهـــو نافع من عناصر الثقافة والحضارة الغربية . بـــل ان بعضهم مضى الى القول بأن على المسلمـــين ان يتبنوا الجوانب التي تنسجم مع الاطار القانـــوني والاخلاقي للشريعة الاسلامية . فالطهطاوي ـ مثلا ـ يرى ان الايمان المطلق بالعقلانية قد يكون متعارضا واحكام الشريعة ، خاصة وان الفرنسيين ـ على حد رأيه ـ يفرطون في عقلانيتهم الى حد رفض الوحي الالهي .

ونجد تيارا آخر يدعو الى التعلم من الغرب في حدود ما هو ممكن ، فان اوربا لم تكن متفوقة في الماضي في العلوم وفي نظام الدولة ، وانها مرت في عدة مراحل تاريخية قبل ان تبلغ ما بلغته من الرقي . وقد عمد هؤلاء الى تقسيم هذه المراحل على هذا

النحو : المرحلة الهمجية ، ومرحلة الحضارة الاغريقية التي تعتبر عصر تنوير وتقدم في جميع نواحي المعرفة (عدا وحدانية الله) وقد انتهت بسقوط روما سنة ٤٧٦ م ، حيث بدأت العصور البربرية المظلمة ، ثم تلت ذلك المرحلة الرابعة ـ وهي الامم ـ اي عصر النهضة (الرينسانس) في القرن الخامس عشر وما بعده . وقد تميزت هذه المرحلة التاريخية بالتقدم العظيم ثقافيا وماديا في اوربا الغربية على وجه العموم . وفي هذه المرحلة انتقل مركز الحضارة من ديار الاسلام الى البلاد الاوربية. ان احراز الاوربيين لهذا التقدم لم يجيء عفوا وبيسر ، وانما كان نتيجة تضحيات جسام قدمتها الشعوب الاوربية التي ناضلت ضد استبداد الملوك والحكام واراقت كثيرا من دمائها حتى تكللت مجهوداتها بالنجاح .

فالحضارة ـ كما ارتأى هؤلاء الرواد ـ مجرد مرحلة تاريخية وليست مسألة تفوق يميز أمة عن أمة اخرى . ومن ثم فان أية أمة تريد ان تصل الى اعتاب التقدم والرقي، فان عليها ان تقدم التضحيات من أجل الوصول الى هذا الهدف . وقد عزا هؤلاء نجاح اوربا وتقدمها الى ثلاثة عوامل : أولها ، المبادرة والحيوية والنشاط ، وثانيها ، قيام نظام سياسي متطور بني على الحرية والعدل ، وثالثها

وهو الاهم عندهم ـ ان الاوربيين لـــم يترددوا في الافادة من الحضارة الاسلامية عن طريق الاندلس وصقلية والحروب الصليبية . لقد انتفع الاوربيون من صلتهم بالمسلمين لانهم كانوا مفتوحي الفكر ، وعلى استعداد لتعلم كل ما وجدوه نافعا لهم مــن الآخرين ، بل حتى من اولئك الذين اختلفوا معهم في العقيدة الدينية .

وثمة عظة اخرى توصل اليها هؤلاء المؤلفون هي ان المسلمين يجب الا تثبط عزائمهم بالفروق الطاهرية بين اوربا وبلادهم ، فالمسلمون استطاعوا يوم ارادوا ان يتبوأوا مركزا يوازي مركز اوربا في العصر الحديث، واذا اراد المسلمون ان يعيدوا مجدهم فعليهم ان ينشطوا قابلياتهم الخلاقة وان يكونوا على استعداد للتعلم من الغرب .

واذا استعرضنا كتابات هؤلاء الرواد نجدهم يوصون بدراسة جميع حقول المعرفة الغربية عــدا العلوم الدينية ، الا ان الطهطاوي ابدى بعـــض التحفظات في دراسة الفلسفة الفرنسية خوفا مــن يريد دراسة مؤلفات الفلاسفة الفرنسيين ان يكون كثير الثقة بالقرآن والحديث حتى لا يتزعزع ايمانه. لقد ميز آخرون بين البلاد الغربية والبلاد الاسلامية بصفتهما عالمين يمتلك الاول المعرفة العلمية والثاني الشريعة الاسلامية ، وبتعبير آخر اكدوا على مادية

الغرب من جهة وروحانية الشرق من جهة اخرى . ونلمس هذا الاتجاه على أوضح ما يكون في كتابات جمال الدين الافغاني (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧) الذي كان أول من عالج الفروق بين الاسلام والغرب من هذه الزاوية .

مرحلة المخاض

قلنا ان المؤرخين المعنيين بالفكر العربي الحديث يتفقون عموما على ان حملة نابليون بونابرت على مصر (سنة ١٧٩٨) كانت ـ على قصرها ـ بداية النهضة العربية الحديثة . فمن هذا التاريخ بدأ العالم العربي يقيم صلات مع الفكر الغربي بطرق متعددة : فرنجة تركيا او تغريبها ، واصلاحات محمد علي باشا في مصر، والبعثات التبشيرية وحركة التعليم في لبنان ، وحركة الترجمة وانتشار الطباعة، والبعثات العلمية الى اوربا ، وحركة الاستشراق .

لقد ساعدت اوربا القرن التاسع عشر بأفكارها (الليبرالية) و (القومية) على تحفيز اليقظة الفكرية والسياسية في العالم العربي ، وأظهرت مدى الحاجة الى الاصلاح والى مراجعة مقومات الحياة الثقافية والسياسية في ضوء هذه الأفكار الجديدة من جهة ، والى محاولة اعادة تقويم التراث العربي الاسلامي للكشف عن مدى صلاحيته لنهضة جديدة عصرية

وشاملة من جهة اخرى . وقد كان زخم اوربا متنوعا ومحيرا حقا في فترة التكون الفكري الجديد هذا . ان مفاهيم الوطن والشعب والقومية والمساواة والحقوق الطبيعية والليبرالية والديموقراطية وغيرها من عناصر التراث الاجتماعي ـ السياسي الأوربي أخذت تصدم وجدان المثقفين العرب وتدعوهم الى اتخاذ موقف ما .

لقد مثلت اولى الصلات والاحتكاكات بين العالم العربي والغرب تحديا خطيرا للقيم التقليدية الاجتماعية والفكرية والدينية . وان دراسة ردود الفعل والاستجابات التي نجمت عن هذه العملية أمر في غاية الطرافة ، وقد عرضت تلك (الاصطدامات) بشمول مدهش على صفحات تراثنا الحديث في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين . ان المناقشات الحيوية المليئة بالحماسة تصدت لنشرها المجلات والجرائد العربية مثل المقتطف (تأسست في سنة ١٨٨٩) والهلال (تأسست في سنة ١٨٩٢) والأهرام (تأسست في سنة ١٨٧٦) وغيرها .

واذا رجعنا الى المقتطف (عدد كانون الثاني ١٨٩٦) نجد مثل هذه المواضيع : الاوبئة ، المكروبات في الهواء ، الفروق بين الرجال والنساء ، مكان الانسان بين الحيوانات ، بالاضافة الى اخبار

تتعلق بالصناعة والزراعة والاختراعات العلمية . في حين وجهت مجلة الهلال نشاطها الى المجالات الأدبية والاجتماعية ، وركـزت اهتمامـــها عـــلى عرض (الايديولوجيات) الاجتماعية الجديدة .

ان من اكثر المناقشـــات ـ او بالاحـــرى الخصومات ـ طرافة تلك التي نشرتهاجريدة الاهرام ابان العشرينيات . ففي عام ١٩٢١ طرحت عــلى صفحاتها مسألة (الاشتراكية والشيوعية) والموقف منهما . ويبدو ان هذه المسألة كانت تسترعي اهتمام المفكرين العرب بعد نجاح ثورة اكتوبر في روسيا . وقد أسهم في هذه المناقشات عدد من المثقفــين البارزين منهم سلامة موسى (الذي يعتبر من اوائل الدعاة للاشتراكية في العالم العربي ، حيث أصــدر كراسا في سنة ١٩١٤ عن الاشتراكية الفابيــة) ومحمد عبدالله عثمان وعبداللطيف نجيب وأحمــد حلمي والتفتزاني وعزيز مرهم . ونستطيع ان نميز في هذه المعركة ثلاثة اتجاهات ، فقد مثل مرهم الأتجاه العاطف على الشيوعية ، وســـلامه موسى الاتجاه العاطف على الاشتراكية الفابية (ظهرت في انكلترا تدعو الى الاشتراكية التدريجية) على حين وقف الأخرون ضد الاشتراكية والشيوعية معـا . وقد ذهب ممثلو هذا الاتجاه الأخير في دفاعهم الى ان كلا الشيوعية والاشتراكية تهددان العالم العربي

الاسلامي . لقد كانت الملكية الشخصية هي المشكلة الأساسية التي دار حولها النقاش .

كان زخم المدنية الغربية وتأثيرها واغراؤها ظواهر لا تقاوم في المجتمع العربي الجديد . لقد كانت هذه الظواهر تتغلغل في كل ميدان من ميادين الحياة والفكر . وكان يقف بين اولئك المتحمسين المندفعين والمتعصبين لكل ما هو غربي ، واولئك المعارضين الكارهين لكل ما هو غربي ، مدرسة توفيقية معتدلة تحاول ان تقف موقفا وسطا بين الاتجاهين المتطرفين ، وهي تدعو الى صيغة للحياة والفكر تستطيع ان تحافظ على روح الاسلام وجوهره لكنها – في الوقت نفسه – تتسامح في قبول كل ما هو نافع وخير يأتي من الغرب . وكانت المناقشات تتفرع الى عديد من المشكلات : الزواج من الأوربيات ، الجنس ، تحديد النسل ، تعدد الزوجات ، البغاء – الموسيقى الاوربية ، الازياء الاوربية ، التعليم المختلط ، الحجاب والسفور الخ.

ويمكن اتخاذ الدكتور طه حسين وسلامة موسى ممثلين للاتجاه الاول ، اي الاتجاه المتحمس لكل ما هو غربي . لقد درس طه حسين في الأزهر فحصل على ثقافة اسلامية تقليدية واسعة ، ثم اتيح له ان ينتقل فجأة الى (السوربون) في باريس لينبهر انبهارا فكريا ووجدانيا عنيفا بالفكر الاوربي

ومنهجه السليم في البحث العلمي ، وبجراة هـذا الفكر في اقتحام عوالم الطبيعة وما وراء الطبيعة ، ومجاهل النفس البشرية . لقد أدرك طه حسين ـ متأثرا باوغست كومتودور كايم وغيرهـما ـ بأن العقل هو الذي يجب ان يحكم الحياة والطبيعة ، وان اوربا انما وصلت الى ما وصلت اليـه مـن سيطرة على الطبيعة وحرية في الفكر واقامة انظمة سياسية ديموقراطية تحترم القانون وتحقق المصالح العامة للمواطنين ، اقول انها وصلت الى ذلك كله بفضل سيطرة العقل . لقد اكتشف طه حسين في اوربا روعة المدنية الانسانية ، وكمـال الحقـوق المدنية ورواج الديموقراطية ، ومن ثم نـادى في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) بأن مصر لن تكون عصرية ومتمدنة مالم تنتم الى اوربا .

وقد بدأ سلامة موسى يرسم خارطة حياته ـ على حد تعبيره ـ حوالي سنة ١٩٠٦ ، فرحل الى اوربا وهو في العشرين ، وشرع يـدرس هـنـاك الفرنسية والانكليزية ويطالع كل ما يساعد عقله على الاستنارة . استمع اليه وهو ينقل انبهـاره بالحياة في الغرب : « رأيت شعوبا حرة لكل منهـا الكلمة العليا التي تتضح في الانتخابات البرلمانية ... ورايت جرائد تعالج المذاهب وتناقش السياسة ، ورايت الاجتماعات التي يجتمع فيها الرجـال

رالنساء ويبحثون فيها مشاكل العالم. ورأيت البيت النظيف والشارع النظيف ، والكتب العديـــدة والمكتبات المجانية ... وشرعت عندئـــذ آخـــذ بأساليب المتمدنين وأهدف الى اهدافهـــم ... رأيت التمدن ... والتحقت بالجمعية الفابية ، وكانت دعوتها الى الخير والبر ترافقها دعوة اخرى الى الشرق والشجاعة ... ورسخت نظرية التطور الى وجداني وتشبعت بها ، فصـــارت مزاجـــي واسلوبي ... وقد قرات اكثر من الف كتاب ... ولكن الكتاب الاول الذي له فضل الصياغة والتوجيه لشخصيتي هو كتاب داروين (أصل الانواع) .

ويتهم سلامة موسى المجتمع الشرقي بالعقم الثقافي لأنه ـ على حد رأيه ـ مجتمع زراعي « حيث ركود التاريخ والتقاليد » وهو مجتمع يمنع التجديد ويحظر التفكير ، وهو لا يريد الحركة بل لا يتمنى اكثر من الهدوء . لذلك فهو يدعو الى ثقافة اوربية صرفة عن طريق قراءة المؤلفات المكتوبة بلغة اجنبية وهي الوسيلة الوحيدة في رأيه للنهوض بالثقافة في الشرق .

تتمثل المدرسة التوفيقية (بين العقل والنقل) خير تمثيل بالشيخ محمد عبده وتلاميذه . وقد دعا محمد عبده الى التميز في الاسلام بين مـــا هـــو جوهري وما هو عارض .

ولا يمكن ان يتم هذا الا بأعادة فتح باب « الاجتهاد » الذي يساعد على تجديد المجتمع الاسلامي . والحق ان تيار التجديد كان قد بدا منذ أوائل القرن الثامن عشر وانتهى في بداية القرن العشرين على يد محمد عبده ، وكان في مجموعه من اشد التيارات تأثيرا وفاعلية في مجرى الفكر العربي وتاريخ يقظته . وقد قام تيار التجديد هذا على أساسين : أولهما العودة الى المنابع الاولى للاسلام وتنقية الدين من البدع ، وثانيهما فتح باب الاجتهاد الذي توقف منذ أمد طويل مما أدى الى الجمود .

ومن مبادرة محمد عبده الأولية هذه ، انطلق تلميذه لطفي السيد فسار الى مدى أبعد ؛ واعتبر الحرية شغله الشاغل ، غير ان مفهومه للحرية كان متأثرا بالفلاسفة الاوربيين امثال (كومت) و (رينان) و (سبنسر) و (مل) . وخطا تلميذ اخر من تلاميذ محمد عبده خطوة أبعد تتميز بالجراة والجسارة ذلكم هو علي عبدالرازق ، الذي تناول نظرية الحكم في الاسلام ففصل بين الدين والسياسة واعتبر نظام الخلافة نظاما علمانيا سياسيا لا علاقة له بالدين ؛ مما أثار عليه ثائرة الثائرين . وكلا هذين المريدين من مريدي محمد عبده ؛ حاولا ان يوفقا بين أفكار الحرية التي جاء بها فلاسفة الغرب المحدثون وبين المنطلق الاسلامي لمفهوم الحريـة .

لقد كان النقاش حاميا وحماسيا في كل ميدان من ميادين الثقافة والمجتمع ، وهو أوسع من ان تحتمله هذه الصفحات . ومن ثم فانني سأعمد هنا الى تقديم بعض الامثلة البارزة في هذا الصدد فحسب :

١ ـ دعا توفيق الحكيم الى الانخراط في سلك الامم الاوربية ودعا الدكتور محمدكامل حسين الى ان ينبري باحث جريء يحمل رسالة (ديكارت) تتوفر فيه روح التفكير التحليلي والايمان به . واثار لطفي جمعة مشكلة توجيه التعليم الى الكيمياء والطبيعة والرياضيات ، وحمل على تعدد الزوجات والحجاب .

٢ ـ وحذر الدكتور عباس عمار من تقليد الغرب قائلا : ان من ابرز عوامل فقدان الطابع القومي هو احتقار تراث الأجداد واعتبار كل ما هو غربي حسنا . ونعى عبدالعزيز الاسلامبولي على المفكرين العرب المعاصرين التنكر للأباء والأجداد وانكار ادبنا ولغتنا واحتقار تاريخنا وثقافتنا، وقطع الصلة بين ماضينا وحاضرنا. وقال محمد شرف : ان حضارة المستقبل في مصر اسلامية عربية . وقال منصور فهمي : ان هناك ثلاث روابط تشد مصر هي الاسلام

والشرق والعروبة . وحذر انيس المقدسي من التقليد الاعمى .

٣ ـ ومن جهة ثالثة نادى جبران خليل جبران بهضم كل ما هو صالح وتمثيله ، ودعا مصطفى صادق الرافعي الى اخذ ما يتفق وتقاليدنا من الغرب . واكد الدكتور علي أبراهيم بأن التقدم يكون في ظل الحضارة الاسلامية مع الاقتباس من الحضارة الحديثة.

ولعل من اطرف المناقشات هي تلك التي دارت في مجلة المقتطف في سنة ١٩٢٦ بين بعض المفكرين العرب عن طبيعة الفكر العربي : اهو غيبي ام يقيني ؟ وهي مناقشات لا تخرج عن النطاق المعروف الذي يتمثل في اتهامات بعض المستشرقين من جهة وردود المتحمسين من العرب والمسلمين من جهة ثانية . لكن الطريف فيها هو الجراة في عرض وجهات النظر والسماحة في الجدل ، ومحاولة الالتقاء عند نقطة اتفاق بين المتجادلين المتعارضين . وانني لادعو شبابنا من ابناء هذا الجيل الى الرجوع الى هذه المناقشات وغيرها ليروا فيها حيوية في التعرض الى المشكلات المعاصرة نحن بأمس الحاجة اليها اليوم .

لقد اثار هذا الجدل ما قاله اسماعيل مظهر

عن الفكر العربي : « فاذا نظرت ... في ما ابرز العرب من صور الفكر وجدت ان فيها من آثار التخلخل والتشعب ما هو جدير بأن يبرز في عصر عكف فيه الفكر على طريقة الشك الغيبي لم يعدها الى طريقة التحليل والنقد ... هذه العقلية بذاتها هي التي ورثها السيد الافغاني عن العرب ، عقلية وقفت عند حد الاسلوب الغيبي لم تتعده ، وتنكبت كل سبيل من الممكن أن يسلم بها الى الاسلوب اليقيني .

وقد استفزت هذه الافكار امين الخولي ومصطفى الشهابي فعمدا الى الرد عليهاعلى صفحات (المقتطف) نفسها . وخلاصة رأيهما ان العرب كانت لهم نظم للبحث اخرجتها عقلية ناضجة كانت تدفع بقوة وشدة الىالنظر والفكر والبحث. وان الاحصاء يظهر ان ما ترجم الغرب في نهضته عن الشرق اكثر مما اخذ منه الشرق الى عهد قريب .

قلت انني لا استطيع ان أتي على كل ما كان يدور في اوساط المثقفين العرب من ابناء الجيل الماضي من جدل حار حول مختلف القضايا الفكرية والاجتماعية وبخاصة الموقف من فكر الغرب وحضارته . لكنني أود أن ابرز هذه الحقيقة الأساسية : ان العالم العربي توزعته آنذاك ثلاثة اتجاهات ثقافية : اولها التمسك بالقديم وثانيها

التوجه نحو الحديث ، وثالثها محاولة الجمع بين القديم والحديث وهو الاتجاه التوفيقي .

اما المحافظون فيقولون بأن أجدادنا القدامى شيدوا صرح حضارة زاهرة قامت على أساسها الحضارة الغربية الحديثة . وان تخلى العرب عن قيمهم الحضارية هو الذي ادى الى تخلفهم . وهم يقولون بأن اية نهضة حديثة لن تتم الا حين يردم العرب الهوة السحيقة بين ماضيهم وحاضرهم ويقومون باحياء تراثهم القديم بما فيه من مثل روحية وثقافية .

ويذهب المجددون من دعاة « التغريب » الى أن الغرب منبع كل ما هو صالح ومفيد لنهضة عربية جديدة تقوم على اساس العقل الذي يهدي الى العلم ، والى تسخير الطبيعة لخدمة الانسان . وهؤلاء لا يريدون اية تجزئة في عناصر المدنية الغربية، بل هم يتحمسون الى نقلها نقلا حرفيا كاملا سواء في مظاهرها الفكرية او الاجتماعية أو المادية .

اما المعتدلون فهم دعاة الاقتباس دون النقل الحرفي الكامل ، وبتعبير أخر هم دعاة الاخذ من عناصر الثقافة الغربية بما ينسجم وقيمنا الحضارية . ويبدو ان هذا الاتجاه هو الذي قدر له ان يترعرع على مر الايام حتى أصبح الاتجاه السائد حتى يومنا هذا .

• موقف جديد

ان موقف الجيل العربي الجديد يبدو مختلفا جدا عن موقف اسلافهم بالامس ، فلا أحد اليوم يناقش تلك المسائل التي أثارها أبناء الجيل الماضي . ذلك ان الجيل الحاضر أصبح في الواقع مندمجا بالفكر الغربي وبالمدنية الغربية . لكن أزمة هذا الجيل تنبع من طبيعة اخرى : انهم يحاولون ان يوفقوا بين اعجابهم بالفكر الغربي العلمي وتطبيقاته الناجحة ، وبين الدمار الذي يلقاه العالم بين حين وأخر من جراء الصراع على المصالح . فأنه على الرغم من ان الغرب حقق مجمل التقدم العلمي والتقني الذي لم تعرف الانسانية مثلا له من قبل ، فأنه لم يستطع تحقيق تقدم مواز في الحياة الاجتماعية وفي حقل العلاقات البشرية كما أسلفنا . ولعل الصدمة الكبرى التي زعزعت ايمان هذا الجيل بالمدنية الغربية هو الاستعمار بشكليه القديم والجديد الذي ادى الى اخضاع الوطن العربي وغيره من بلدان العالم الثالث الى نفوذ الدول الغربية الكبرى . ان هذه الصدمة كانت من عمق التأثير والخطورة بحيث ان المثقفين العرب الذين طالما امتلأوا حماسة للفكر الغربي ، تحولوا الى خصوم الداء للغرب . ولقد ادرك هؤلاء المثقفون ان هناك تناقضا كبيرا وحادا بين المثل العليا وبين

النظريات من جهة، وبين تطبيق هذه المثل والنظريات من جهة اخرى .

ان انفجار الحرب العالمية الثانية سبب بدوره تحولا في موقف العرب من الفكر الغربي . فأن انهيار فرنسا المفاجيء في وجه قوى النازية في الوقت الذي تضطهد الشعب الجزائري، والاعتداء على حرية كثير من الشعوب الصغيرة المسالمة ، برهن على ان العنف والقوة كانا ما يزالان السبيل المفضل لحل الخلافات والنزاعات الدولية عند الدول الكبرى . وان العلم - وهو اشهى ثمرات العقل الانساني - سرعان ما ينقلب الى علقم مر في حلق الانسانية نفسها وقذى في عينيها . وكان خلق اسرائيل في فلسطين العربية على حساب مليون ونصف عربي شردوا من ديارهم كان وما يزال في نظر العرب ثمرة مرة لنزعة السيطرة واستخدام القوة في مواضع الباطل .

قلت ان الجيل العربي الجديد اندمج في الواقع بالفكر الغربي وبأسلوب حياة الغرب ولم يعد كأسلافه يناقش المسائل التي ناقشها ابناء الجيل الماضي : الحجاب والسفور ، تعليم المرأة ، التعليم المختلط ، الى أخر قائمة نقاط الاختلاف بين العقليتين اللتين توزعتا المفكرين قبل بضعة عقود من السنين . الا ان ازمة هذا الجيل تنبع من طبيعة اخرى : انهم يحاولون أن يوفقوا بين قيمهم القومية

والوطنية وبين آمالهم في اقامة مجتمع انساني عالمي تسود فيه المساواة والعدالة ليس بين الافراد فحسب بل وبين الشعوب . ان جيلنا الحالي يطرح اسئلة خطيرة هي التي تكون نقاط الافتراق بينه وبين الفكر الغربي . لماذا تقاسي الملايين في أسيا وافريقيا من الجوع والمرض والجهل لمجرد ضمان حياة اكثر رفاهية لشعوب الغرب ؟ لماذا يبقى ثلثا البشرية على حافة الجوع ، وثلثها في أمية مطبقة ، في حين وصل التقدم العلمي والتقني في البلدان المتقدمة إلى القمة؟ لماذا يقوم التمييز اللوني والعنصري في العالم ؟ ولماذا يسكت الضمير الغربي عن استخدام العلم والتقنية في ابادة حياة ملايين الناس وفي تدمير ثمرات الحضارة الانسانية ؟ بل لماذا تسكت هيئة الامم ــ وهي أعلى نماذج التنظيم العالمي ــ عن حقوق الشعب العربي في فلسطين وعن عدوان اسرائيل المتكرر على أراضي العرب ؟

ان روحا جديدة تولد اليوم في الوطن العربي ، تنبع من الايمان بالفكر العلمي ، لكنها ــ مع ذلك ــ تحمل الشك في قدرة هذا الفكر على حل مشاكل هذا العصر الخطيرة . ان الجيل العربي الجديد مع أنه يحيا حياة غربية ، لكنه بدأ يستغني عن العلاقة المباشرة بالغرب ، لانه يستطيع ان يفيد من منجزات الحضارة ايا كان مصدرها مادام الغرب لم يعد

وحده يحتكر التقدم العلمي والتقني والثقافي . وان هذا الجيل بدأ يؤمن بأنه قادر ـ لو أتيح له ـ ان يلعب دورا في عالمنا الجديد يساوي الدور الذي تقوم به شبيبة الغرب ، خاصة بعد أن اصبحت الثورة العلمية و « التكنولوجية » ثورة عالمية في متناول جميع الشعوب .

ويمكن القول بأن العالم العربي اليوم بدأ يخطو نحو عصر جديد بتخليه التدريجي عن التقليد . وهو في سبيل ان يبلور نظرة ثابتة تميز بين جانبي المدنية الغربية : الجانب المادي والجانب الثقافي . فالعرب لم يعودوا يعارضون في الانتفاع من المخترعات وادوات الانتاج والتقنية عموما (كما انهم لا يعارضون في اقتباس العناصر الثقافية الايجابية ، لكنهم ـ من ناحية اخرى ـ يحاولون بجدية واضحة الا يكونوا ـ كما كان الامر في الماضي ـ عالة على الغرب ومجرد سوق استهلاكي لبضائعه ومنتجاته . بل اننا لنلمح اليوم في الوطن العربي تحولا الى التصنيع (اي مرحلة الانتاج لا مرحلة الاستهلاك) وحماسة في استغلال الموارد الطبيعية من اجل تحقيق الاستقلال الاقتصادي . ان هذا لم يعد امرا مستحيلا ، فقد استطاعت اليابان مثلا ـ وهي بلد شرقي ـ ان تدخل مرحلة التصنيع الثقيل والدقيق وتغزو اسواق الغرب نفسه وتنافسه في عقر داره . وهكذا

نجد ان العربي الجديد لم يعد منبهرا امام كل ما هو غربي كما كان الامر بالنسبة لعرب القرن التاسع عشر . ان نماذج الفكر الغربي وانماط حياته لم تعد ـ كذلك ـ المثل الاعلى لدى قطاعات واعية من ابناء هذا الجيل ، وهذه الروح الجديدة تدفع الكثيرين الى الاختيار الواعي من كل ما هو اجنبي .

ومن جهة اخرى ، نشهد نهضة تعليمية وثقافية واسعة في جميع ارجاء الوطن العربي اخذت تستقطب الملايين حتى ليمكن القول ان الأمية التي كانت طابع المجتمع قبل جيلين لم تعد ملمحا مخيفا اليوم بل هي في دور النزع والاحتضار .

بل واكثر من ذلك ، تدلل البحوث العلمية التي نشرت في اوربا وفي الولايات المتحدة من جانب العلماء العرب على التخصص العلمي الدقيق بين اعداد هائلة من ابناء الجيل العربي الحاضر . ففي سنة ١٩٦٥ نشر العلماء العرب نحو الف بحث علمي ، وهذه وان كانت تكون نسبة ضئيلة من مجموع سكان العالم العربي ، فأنها ـ مع ذلك ـ تشير الى ان البحث العلمي اخذ يسير في الوطن العربي بوتيرة اسرع بكثير مما يحدث في كثير من البلدان ، خاصة اذا اخذنا بنظر الاعتبار اننا بدانا من نقطة الصفر قبل حفنة من السنين . والى جانب هذه الظاهرة الفكرية والثقافية الصحية ، فقد ظهر في الوطن

العربي عدد لا بأس به من الدوريات والمجلات التي تعالج مواضيع الرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم النبات وغيرها من ميادين العلم .

ان وجود عدد من العلماء العرب في الخارج (وبخاصة في الولايات المتحدة الامريكية) يشير الى ظاهرة هي ان العلم لم يعد محتكرا في عصرنا الراهن من جانب الغرب ، فقد انتشر نوره لينير اكثر اجزاء كرتنا الأرضية . كذلك يشعر العرب بالاعتزاز لأنهم يمتلكون الاف الطلاب الذين يتخصصون في الخارج (وقد قدر عددهم في عام ١٩٦٥ باكثر من ٢٨ الفا منهم حوالي ٧٤٪ يتابعون دراساتهم في حقل العلوم) .

وبينما كان « المجددون » في الماضي القريب يدعون الى ثقافة اجنبية بحتة ، لاتينية او انكلو سكسونية او الى ثقافة عالمية مطلقة لا حدود ولا قيود ولا تحفظات تقف دونها ، اخذنا نقرأ في السنوات الاخيرة عن دعوة جديدة يرفع لواءها المفكرون العرب الى ثقافة ذات طابع قومي ومحتوى انساني تقدمي تريد ان تمزج مزجا عقلانيا واعيا بين عناصر التراث الايجابية وثمار الفكر العلمي الحديث . وتصاحب هذه الدعوة دعوة مكملة الى احتذاء اسلوب التفكير العلمي واتباع منهاج البحث

العلمي في عملية دراسة الظواهر للوصـــول الـــى الحقائق .

لكن هل العلم وحده يكفي ؟ وهـــل تحـــل الصناعة و « التكنولوجيا » كل المشكلة ؟ كلا فهناك للجانب الثقافي مهمة في بناء المجتمع ، وهذا يحتاج الى مجهود أخر لعله اشق واصعب . لذلك يتساءل المثقفون العرب عن جدوى الاقتباس المحض من علوم الغرب وصناعاته وتقنيته في بناء مجتمـــع عصري متكامل ؟ وهم يذهبون الى ان هذا يكون مجرد قشرة تخفي أوضاعا متنافرة مع هذه « المقتبســـات » ولا تمت لها بصلة . ويصل التفكير بالبعـــض الى القول بأن علينا الا نستعمل الآلات والاجهزة والا نقتبس النظريات والنظم فحسب ، بل يجب علينا من باب اولى ان نعرف لماذا وصل الغرب الى اختراع هذه الالات والاجهزة ، وما هي الجذور التاريخية التي تفرعت عنها هذه النظريات والنظم .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد

٧٦٠ لســـنة ١٩٧٧

الفهرس

تنويه: هذا الفهرس ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى المواضيع .

م. سرمد حاتم شكر السامرائي

دار الحرية للطباعة بغداد ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧ م

الموسوعة الصغيرة

سلسلة ثقافية شهرية تتناول
مختلف العلوم والفنون والاداب

الكتاب القادم

فلسفة الفيزياء

د. محمد عبد اللطيف مطلب

السعر ٥٠ فلساً

دار الحرية للطباعة - بغداد